ديمقراطية محمد

صلى الله عليه وسلم

تأليف

محمد حلمي محمود

تقديم

د. علي محمود البنا

الكتاب: ديمقراطية مُحَمَّد ﷺ

الكاتب: مُحَمَّد حلمي محمود

تقديم: د. علي محمود البنا

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

محمود ، حلمي ، مُحَمَّد

ديمقراطية مُحَمَّد ﷺ / مُحَمَّد حلمي محمود ، تقديم: د. علي محمود االبنا

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٨ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٩٢٩ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥١٦٤ / ٢٠١٩

ديمقراطية محمد صلى الله عليه وسلم

تقديم

يتفق الإسلام مع الديمقراطية من حيث إعطاء العامة حق إبداء الرأي ومشاورة الحكام للمحكومين، كما أن الإسلام يأمر بتطبيق المساواة بين أفراد المجتمع وتحقيق العدالة في العديد من النصوص الشرعية كقول الله سبحانه وتعالى (سورة آل عمران – آية ١٥٩): (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ). وقوله بسورة الشورى آية ٣٨: (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ). وقول الرسول ﷺ فيما رواه مسلم "الدين النصيحة (ثلاثاً) قلنا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم".

مرت على الديمقراطية – كمذهب وكنظام – تيارات كثيرة وتقلبات شتى أدت إلى ازدهارها حيناً وتقلصها وانحسارها حيناً آخر، ويُمكننا القول بأن الديمقراطية كمذهب سياسي قد حظيت من تاريخ البشرية بما لم يحظ به مذهب آخر سواء من ناحية عمرها الطويل الذي امتد من أقدم عصورها إلى أحدثها؛ فهناك الديمقراطية اليونانية والديمقراطية القيصرية والديمقراطية الكلاسيكية أو الغربية والديمقراطية الشعبية، وأصبحت الديمقراطية الآن شعار جميع دول العالم بلا استثناء.

والديمقراطية هي شكل من أشكال الحكم يشارك فيها جميع المواطنين المؤهلين على قدم المساواة إما مباشرة أو من خلال ممثلين عنهم منتخبين؛ وفي اقتراح، وتطوير، واستحداث القوانين. وهي تشمل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تمكن المواطنين من الممارسة الحرة والمتساوية لتقرير المصير السياسي. ويُطلق مصطلح الديمقراطية أحيانا على المعنى الضيق لوصف نظام الحُكم في دولة ديمقراطية، أو بمعنى أوسع لوصف ثقافة مُجتمع.

والديمقراطيّة بهذا المعنَى الأوسع هي نظام اجتماعي مميز يؤمن به ويسير عليه المجتمع ويشير إلى ثقافة سياسيّة وأخلاقية مُعيّنة تتجلى فيها مفاهيم تتعلق بضرورة تداول السلطة سلمياً وبصورة دورية. أما عن مُصطلح الديمقراطية نفسه فهو مُشتق من مُصطلح إغريقي يعنى حكم الشعب لنفسه، وهو مُصطلح قد تمت صياغته من شقين (ديموس) "الشعب" و(كراتوس) "السلطة" أو "الحكم" في القرن الخامس قبل الميلاد للدلالة على النظم السياسية الموجودة آنذاك في ولايات المدن اليونانية – وبخاصة أثينا – والمصطلح مناقض لـ(أرستقراطية) وتعني "حكم نخبة". بينما يتناقض هذان التعريفان نظرياً، ولكن الاختلاف بينهما قد طمس تاريخياً؛ فالنظام السياسي في أثينا القديمة – على سبيل المثال – منح حق ممارسة الديمقراطية لفئة النخبة من الرجال الأحرار واستُبعد العبيد والنساء من المشاركة السياسية. وفعلياً، في جميع الحكومات الديمقراطية على مر التاريخ القديم والحديث، تشكلت الممارسة الديمقراطية من فئة النخبة حتى مُنح حق العتق الكامل من العبودية لجميع المواطنين البالغين في مُعظم

الديمقراطيات الحديثة من خلال حركات الاقتراع في القرنين التاسع عشر والعشرين.

من الممارسات الديمقراطية للرسول (ﷺ) عندما خرج وأصحابه لاعتراض قافلة تجارية لقريش، التى أرسلت جيشاً جراراً مجهزاً بأحدث المعدات، وأراد الرسول (ﷺ) أن يختبر مدى استعداد جنوده؛ وهنا يروي ابن هشام فى سيرته أن الرسول (ﷺ) استشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون"، لكن: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فو الذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه»، فقال له رسول الله خيراً ثم دعا له

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار؛ وذلك لأنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا، نمنعك ما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله (ﷺ) قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل» قال: «قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما

جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى عدونا بنا غداً، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يُريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله"، فسُر رسول الله (ﷺ) بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

هذا ومن الجدير بالذكر أن الحكم في الإسلام يقوم على أحد أساسين: البيعة أو الشورى. إلا أنه لا توجد نصوص تأمر باتخاذ نظام حكم معين، لذا فإن الإسلام لا يتعارض مع النظام الملكي أو الجمهوري، ويمنح الإسلام طبقاً لمبدأ الشورى للمسلمين الحق باختيار نظام الحكم الذي يناسبهم ويناسب وقتهم ما لم يتخلل ذلك أي مانع شرعي.

وما بين يديك كتاب ملئ بأحاديث الرسول ﷺ التي اهتمت بالديمقراطية؛ وهي التي قالها رسول الله ﷺ في حياته؛ وجعلت من أمة الإسلام أمة عظيمة يُحتذي بها..

د. علي محمود البنا

مقدمة

ليس هذا كتاب تاريخ، ولا هو كتاب تصوف، كلا، ولا هو حشد لآيات وأبيات أريد بها المديح لذاته.. وإنما هو بحث يتناول "شريحة" وشريحة فقط من حياة الرسول وأخلاقه، رسول نيط به صيانة البشرية من التردي في هوة البوار، بل أن هذا لهو المهمة الفذة التي جاء من أجلها الدين، فالدين إنما جاء للوحدانية ونصرة المظلوم، وتحرير الإنسان من ربقة الذل ونير العبودية، وليرد إليه كرامته واعتباره، ويقدره حق قدره ويرفعه عن أن يكون كالسائمة التي يركبها ويتغذى بلبانها، وتحمل أثقاله إلى بلد لم يكن ببالغه إلا بشق النفس.

ولقد تخيرت من الآيات والأحاديث وأقوال الصحابة والمستشرقين وكتابات المفكرين كل ما يخدم الموضوع العام للكتاب بما لا يخرج عن مجراه، وكانت أقوال الرسول وما ورد في القرآن هي الروافد الصابة في بحر هذا الكتاب الذي اخترت له عنوان الديمقراطية.

ولقد انتقيت هذه الكلمة "الديمقراطية" بعينها لأنها أدق وأصدق في موضوع الكتاب، ذلك بأن للديمقراطية كما وردت في المعاجم المختلفة ومنها "أكسفورد" وكذلك "دائرة المعارف البريطانية" معنيين هما "حكم

الشعب" و"المساواة"، ففرعت منهما معنى ثالثا هو "التواضع" ذلك لأن التواضع لصيق بالمساواة لأن "المتواضع" يسوي نفسه بالناس وهذا ينصب على المعاملة الشخصية وعلاقة الفرد ذاتيا بالناس مجردا من صفته الرسمية كحاكم وكرئيس دولة كالنبي مُحَمَّد ﷺ

وبذلك حاولت أن أدخل معنى آخر جديدا في مفهوم الديمقراطية حتى يكون أدق وأشمل لمعان ثلاثة هي: نظام الحكم، التواضع، المساواة.

ولقد استشرت في وضع هذا الكتاب أكثر من مرجع من أمهات الكتب العربية والإفرنجية قديمها وحديثها في السيرة والتفسير والحديث، ودعمت حجتي بما ورد فيها من آراء مختلفة كي ما أصل إلى مبتغاي من التحليل والتعليل والشرح إبرازا للصورة العظمى لحياة عجيبة حيرت أفكار المحللين وغيرت مجرى التاريخ كله، ظهرت فبهرت كالشمس تطلع على النائمين وعلى النبات فيصحو النائم، ويستقيم النبات على سوقه، وتقتل الجراثيم ليطهر كل شيء، ويصلح للحياة والحركة..

ولم أكن في هذا متحيزا للنبي ﷺ كمسلم وإنما ابتغيت سبيل الحيدة التامة طلبا للصدق والعمق، فإذا برز من خلال السطور بيت أو عبارة في المديح فقد تسللت مني عفو الخاطر لأن المناسبة الكريمة التي سبقت البيت أو العبارة أو لحقتها أرغمتني على ذلك، لأن واقع الحال ينتزع الثناء والإعجاب اللاهج بالثناء.

ولقد استخدمت في هذا الكشف مفتاحاً للشخصية ذا ثلاث شعب، يبلغني إلى ما دق وغمض من هذه السيرة وهذا السلوك، حتى يفتح للقارئ الغرفة المحمدية من أخلاق الرسول الحاوية لهذا المعين الذي لا ينضب من الفضل ودلائله، الحافلة بالأحداث الهائلة في وقت كان حتما أن يضج بالأحداث، وهو المفتاح الذي يستعمله المحللون النفسانيون بشعبه الثلاث وهي: أولا سلوك المترجم له وتصرفاته، ثانيا أقواله التي تفصح عن خبيئة نفسه، وثالثا ما يقوله الناس عنه، لأن الناس عندما تتحدث عن امرئ فإنما تذكر وتسجل وتنقد..

إن النفس التي خلقت من أرومة واحدة وانتمت لأصل واحد لا ينبغي لها أن تستعبد أو تستذل، فإن الناس يشتركون في الخلقة وفي جميع الصفات الآدمية، فهم كلهم أبناء تسعة أشهر، وأبوهم وأمهم واحدان، ولكل عينان وأذنان ولسان وشفتان، ولكل قلب له شكل وحجم واحد مشترك، و"ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه".. وهم يحسون الحر اللافح والبرد النافح في حمارة الصيف وصبارة الشتاء العاتية، وهم يألمون لفقد عزيز، وينفرون من كل منظر أليم أو بغيض، وهم يتأذون من كلمة نابية أو رائحة زاكمة.. وترى الشمس إذا طلعت وزعت نورها وحرورها عليهم بالقسط والسوية، فهي لا تجود على هذا الغني بقدر أكبر مما تهبه هذا الفقير، لغناه. وإذا غامت أو غابت اكفهرت الدنيا أمام أعين الجميع بلا تفرقة؛ فالناس سواسية كأسنان المشط، وعلى ذلك فيجب أن يتساووا في المعاملة المدنية كأسنان المشط، وهذا ما فعله مُحَمَّد ﷺ: شفع القول

بالتطبيق العملي فسوى بين الناس ورد للإنسان كرامته واعتباره فأحس الإنسان لأول مرة من أجيال بأنه إنسان..

وهذا ما حاولت في الصفحات التالية أن أثبته وأدلل عليه وأؤكده للقارئ وأنشره على الملأ حقيقة واقعة لا تقبل التأويل ولا الجدل.. ثم رددت على بعض المتخرصين من كتاب الغرب الذين هاجموا مُحَمَّدا صلى الله عليه وسلم وذلك إحقاقا للحق وإنصافا للتاريخ.. ولعل القارئ يجد في هذا ما يشفي غلته في هذا الاعتبار وأن يظفر منه بالمتعة الذهنية التي يبتغيها من قراءة أمثال هذا البحث..

ألا.. حبا وكرامة

محمد حلمي محمد

الفصل الأول

ديمقراطية الحكم

معنى الديمقراطية:

كلمة "الديمقراطية" في الأصل كلمة يونانية مركبة من كلمتين هما (ديموس) ومعناها الشعب و(كراتوس) وتعني السلطة، وقد كانت سلطة الشعب في العصور اليونانية المتقدمة هي التي تحدد شخصية من سيتولون أمور البلاد.. وقد تفرع من هذا المعنى معنى آخر لصيق به هو "المساواة" كما ورد في شتى المعاجم اللغوية ودوائر المعارف المختلفة، كذلك يمكن تفريع معنى آخر ثالث شاع في العصور المتأخرة على ألسنة العامة وهو "التواضع"، ولا بأس بذلك المعنى لغوياً، فإن المتواضع يسوي نفسه بالناس وهذا لا يخرج عن معنى المساواة في قليل ولا كثير..

ومفهوم الديمقراطية في العرف السياسي المعاصر هو حكم حكومة لها مجلس نيابي أو مجلسان، أو بمعنى آخر هو حكم الشعب نفسه بنفسه بجانب مؤسسات الديمقراطية المصطلح عليها قانونا وهي الصحافة الحرة وحرية الرأي والمعارضة المنظمة..

هذا من الناحية الشكلية التي وضعها فقهاء القانون، والتي يجب أن يسير عليها نظام الحكم من ناحية التطبيق العملي، وإلا كان حكما فاسدا

مقنعا بقناع الديمقراطية بقيام مجلس نيابي مزيف وبقية المؤسسات الديمقراطية الشكلية الأخرى التي لا تقدم ولا تؤخر في فساد الحكم..

فالحكومة الديمقراطية الحقيقية – إذن – هي تلك الحكومة التي تعمل لصالح الشعب مهما يكن لونها وشكل الحكم فيها، وقد تقوم حكومة كهذه بدون مجلس نيابي منتخب كحكومة النبي مُحَمَّد ﷺ وخلفائه الراشدين فتكون حكومة ديمقراطية، ديمقراطية بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى، وذلك من ناحية التطبيق العملي، بمعنى أنها تمثل الشعب ولأنها من الشعب وبالشعب والشعب عنها راض..

وعلى النقيض من هذا – كما بينا – قد تقوم حكومة أوتوقراطية "فردية" فاسدة يسندها برلمان من الإقطاعيين والمحتكرين وأصحاب المصالح الشخصية ويتم الانتخاب لها في ظل الرشوة أو الإرهاب أو كليهما معا، فتحكم فئة من الناس ويسمون حكومتها حكومة ديمقراطية وما هي من الديمقراطية في شيء، كما كانت الحال في عهد الحكومة الملكية البائدة الفاسدة في مصر..

فمسألة الحكم– إذن– مسألة تطبيق وعمل لا مسألة شكل وصورة.

وقد تقوم في بلد ما حكومة ديمقراطية تعمل لصالح الشعب ويرضى عنها الشعب، ويكون مجيئها وتربعها في دست الأحكام بناء على انتخابات حرة تجريها هيئة محايدة، وتراعى فيها إرادة الشعب، ويترك للمرشح فيها حق الاتصال بالناخب وعرض برنامجه عليه فلا يتولى الحكم إلا القادرون

عليه المتمتعون بتأييد الأمة حتى إذا انحرفوا عن الجادة ولم يرض عنهم الشعب، فنزع ثقته منهم ومن الحكومة التي تمثلهم أفسحوا المجال لمن هم أقدر منهم على تولي الحكم، وهذا هو أعلى مراقي الديمقراطية نصا وروحا، كما هي الحال اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية وفي إنجلترا وفرنسا وهولندا ودول اسكندناوه؛ فنظام الحكم في هذه الدول مستتب من جميع الوجوه فهي حكومات ديمقراطية عاملة عادية تسهر على مصلحة الشعب وصورة الحكم فيها صورة ديمقراطية، وديمقراطيتها صحيحة لا زيف فيها ولا تمويه..

تخبط:

كان العرب في جاهليتهم قبائل متناثرة وشيعا متنافرة وأحزابا متناحرة، ليس لهم قانون رادع ولا نظام زاجر، يعيشون على شريعة الغاب ولا يعرفون من الحياة إلا البطش، يسيل عندهم الدم أسرع من سيل الماء إلى الأودية، يفخرون بالظلم والجبروت ويتباهون بالجبت والطاغوت، حتى لقد امتلأ شعرهم – على كثرته – بأيامهم المشهورة التي كانوا يشنون فيها الغارات للنهب والسلب أو للانتقام من قبيلة معادية.. قال قائلهم وهو المنخل اليشكري:

قـوم إذا الشـر أبـدى ناجذيـه لهـم طـاروا إليـه زرافـات ووحـدانا

لا يسـألون أخـاهم حـين ينـدبهم فـي النائبات علـى مـا قـال برهانـا

يصف قومه بأنهم عندما ينفخ في بوق الحرب يطيرون إليها جماعات وفرادى دون أن يسألوا عن سبب ذلك وحسبهم أن يدعوا فيلبوا.. لم يعرفوا الحكومة المنظمة اللهم إلا في إمارتي الحيرة وغسان على تخوم فارس والروم، وكانتا تخضعان سياسيا لهاتين الحكومتين، واليمن التي كانت تعاني من غارات ونفوذ الأحباش المجاورين.. وكان الحكم عندهم أوتوقراطيا فرديا كل شيء فيه للحاكم، أما الشعب فليس له إلا الفتات..

فلما أن جاء الإسلام عرف العرب لأول مرة في تاريخهم حياة الاستقرار، وسكنوا المدن في ظل حكومة رشيدة عادلة، ترعى مصالحهم وتسهر على راحتهم، وآخى الله بالإسلام بينهم وجمع بالدين كلمتهم، وبث فيهم روح النظام وحب العمل، فزالت العداوات واختفت الإحن والتراث، وزالت النعرة القبلية والتفاخر بالأنساب، وبذلك اتسعت الرقعة وزاد الإنتاج فدانت لهم دولتا الفرس والروم العظيمتان في ذلك العهد..

ولقد كان من أكبر مظاهر هذه الفوضى المنبثة في كل مكان ما كان حاصلا بين الأوس والخزرج بالمدينة من الحقد الكراهية ومن خلافات قبلية مستعرة، فكان مجرد إرسال بيت من الشعر في الفخر بالفرد أو القبيلة هو الشرارة لإشعال الحرب من جديد حرب لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر.. ولعل حرب البسوس التي دامت أربعين سنة بين حيي وائل بسبب مقتل ناقة خير شاهد على انعدام قيام حكومة منظمة توقف المعتدي عند حده وتحسم هذه الخلافات الدموية السافحة.

هكذا كان الحكم في شبه الجزيرة العربية قبل عهد النبي صلى الله عليه وسلم: فوضى.. قتل.. غارات.. نهب ثروات، إلى حد أن ضج أنصار السلام، مما أورده الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة التي يمدح فيها هرم بن سنان والحارث بن عوف لقيامهما بالصلح بين عبس وذبيان والحيلولة دن قيام حرب بين القبيلتين..

قال:

تـداركتما عبسـا وذبيـان بعـد مـا تفـانوا ودقـوا بينـهم عطـر منشـم

ومنها:

ومـا الحـرب إلا مـا علمـتم وذقتمـو ومـا هـو عنهـا بالحـديث المـرجم

متـى تبعثوهـا تبعثوهـا ذميمـة وتضـر إذا ضـريتموها فتضـرم

فتعرككمـو عـراك الرحـى بثفالهـا وتلقـح كشـافا ثـم تحمـل فتتـئم

بمعنى أن حديث الحرب وويلاتها حديث معروف ليس إلى إنكاره من سبيل، ليس حديث خرافة، وأنها إذا قامت كانت كالحة بغيضة لما تجره على العرب من ويلات ومصائب، وأنها سوف تكون ذات ضراوة وشراسة فيكون لها ضرام النار، ثم أنها سوف تطحنهم كما تفعل الرحى بقطعة الجلد أو الخرقة من تحتها "وتلقح كشافا" أي تحمل في عامين متتاليين وكل مرة تخرج توءمين، بمعنى أنها إذا قامت فسيشتد أوراها وتبقى أمدا فهي حرب عوان بما يضيفه إليها أفراد القبيلتين من وقود الشر والمؤامرة..

ولم يكن ثمة تعايش سلمي بين قبيلة وأخرى إلا في النزر اليسير، وكان هذا أكثر ما يكون عندما تستعدي قبيلة، قبيلة على قبيلة، بمعنى أن تتحالف قبيلتان ضد ثالثة أي أن الأحلاف هناك كانت – كما هو حاصل اليوم – أحلافا عسكرية تماما، كحلف الأطلنطي وحلف وارسو وحلف جنوب شرقي آسيا، ولكن على صورة مصغرة طبعا والقياس مع الفارق، فقد ازدادت الرقعة وتضخم عدد الجماعات، وكثرت الدول..

وكان نظام الرق هناك في أبشع مداه إلى حد أن كان بعض العرب ممن سلبوا الشرف والكرامة يكرهون إماءهم على البغاء ليكسبوا المال من ورائهن. "ولا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا"..

حتى جاء النذير، وعرفت العرب الحكومة المركزية الصالحة لأول مرة فنفر الناس من الحرب القبلية، وبدأت المدنية تدخل شبه الجزيرة العربية من أوسع الأبواب على يد مُحَمَّد بن عبد الله الفتى القرشي الفقير صلى الله عليه وسلم.. واتجهت الحرب والفروسية التي كانت سمة العرب حين ذاك وجهة أخرى أشرف وأنبل، وانتقلت من حرب الفوضى، حرب العصابات إلى حرب منظمة، حرب ميدان تقريبا بل لقد كان العربي يحارب الآن بكل جوارحه في تفان وإخلاص يلقي بنفسه في الأتون الساعر سباقا إلى حومة الوغى طلبا للفردوس التي وعد بها المتقون على نقيض الحال السابقة التي كان القتال فيها يتسم بالتحرز والحرص على الحياة لأنه ليس له من غاية سامية لأنها كانت حرب باطلة ونزوة عارضة هوجاء لا تلبث أن تخمد لأنها ليست حرب مبدأ ولا عقيدة..

أما الآن وبعد ظهور الإسلام فكان التسابق إلى الموت ينتهي بالنصر المؤزر، وقد لوحظ أنه في مثل هذه الحرب الدينية كان عدد المحاربين المؤمنين يكاد يبلغ ثلث أو ربع الجيش الآخر، لكن النصر كان حليفهم دائما لأن جنودا من الملائكة كانت تحارب معهم.. لأنها حرب تفان وتضحية لأنها حرب كرامة وحرية.. حرب من أجل البنين والأحفاد محررين من ربقة الذل، ذل الفكر المكبل بأغلال الرجعية والجهل.. حرب تدعو إلى الله وتحرير الإنسان من غباء عبادة قطعة من الحجر أو المعدن أو حتى من العجين أو التمر يعبدها ذلك الجاهل المسكين ثم يهوى عليها أكلا. وإلى تحرير الإنسان من تحكم أخيه الإنسان وقد خلق حرا مثله لا يقل عنه عينا أو سنا أو يدا أو عضوا آخر..

وحارب العرب أعداء الله وأعداء الدين والإقطاعيين والمستغلين من المشركين حتى تم القضاء عليهم، واهتدى الناس إلى أن مُحَمَّدا صلى الله عليه وسلم صادق بما ساق من البراهين العملية على أن دعوته حق، لا يأتيها الزيف من بين يديها ولا من خلفها، وأدركوا أن الدين الجديد دين عزة وكرامة وأنه قد جاء بالخير والبركة للناس جميعا، لا لفئة معينة من البشر فهو دين عموم، ولذلك جاء شاملا لم يستثن شيئا ولا شخصا.. ثم بعد ذلك طوحت بهم طوائح الهداية والإصلاح إلى خارج شبه الجزيرة لنشر الحضارة الجديدة والتبشير بسعادة الدارين، وكان كل هذا ثمرة قيام حكومة ديمقراطية أنشأها مُحَمَّد ﷺ في الحجاز.

وأول شيء نادى به الإسلام بعد الإيمان بالله هو المساواة، والمساواة أول مظاهر الحكم الديمقراطي.. والديمقراطية – كما أسلفنا – ينسحب معناها على "نظام الحكم" وعلى "التواضع" وعلى "المساواة".. ولم يكن هذا النظام معروفا في الجاهلية إذ كان عصر بداوة وانحطاط يلتهم فيه الكبير الصغير كما تلتهم الحيتان صغار السمك.. عصر كانت الحرية فيه معدومة، وشخصية الفرد فيه تائهة في ضلالات الطغيان لا يعرف لها وجود إلا للملك ومن يلونه من أقاربه وذوي الحظوة لديه..

ولكن لا يستلزم هذا أن يكون كل حكام القبائل على هذا النحو من الاستبداد والتحكم، فقد وجد من بين شيوخ القبائل الحاكم العادل الحريص على شعبه، ولكن مثل هذا الحاكم كان حكمه محليا ومحدودا بالحيز الصغير الذي يعيش فيه ويحكمه أعني بحجم القبيلة التي يرأسها، ولم يكن حكمه العادل يمنع قبيلة من شن الغارات للنهب، ولم يكن ليعطي العبيد أية فرصة لتلقي المعاملة الحسنة، وكانت فرص التحرر من العبودية قليلة جدا بخلاف ما أوجده الإسلام، مما سنشير إليه فيما بعد في هذا الكتاب. كما لم يكن مثل هذا الحاكم العادل صاحب رسالة وتلك ميزة الدعوة المحمدية، إذ جاء مُحَمَّد ﷺ للناس كافة بلا استثناء، وجاء بقواعد جديدة وكثيرة جدا ومتعددة، تكون في جملتها عوامل انقلابا هائلا لم يعرف التاريخ له مثيلا..

ولم يكن مثل هذا يتأتى لشيخ قبيلة عادي غير موحى إليه لأن هذا تدبير أكبر من تدبير البشر اختير له مُحَمَّد ﷺ لينفذه، وهكذا نجحت

الدعوة وامتدت حتى شملت البلاد الواقعة بين جبال البرانس في غرب أوربا، وحدود الصين شرقي آسيا..

وكان العرب قبل الإسلام يحقر بعضهم بعضا، ولا يعرفون لبعضهم البعض كرامة ولا آدمية، فكل قبيلة هي المكرمة صاحبة الفضائل كلها وقد ذهبت بكل شيء وما سواها من القبائل حشرات أو سائمة إلى حد أن أحد الملوك لم يكن يسمح بزفاف فتاة من القبيلة الأخرى إلى زوجها ما لم يدخل هو بها أولا..

ومن أوضح الدلائل على تحكم الفرد لذلك العهد ما قيل في المثل من "أعز من كليب وائل".. ذلك أن كليبا هذا كان من جبروته أنه كان يحمي الكلأ فلا يقرب أحد حماه، ويجير الصيد فلا يهاج، ويعبر بالروضة تعجبه أو الغدير يرتضيه فيرمي عنده بكليب ثم ينادي بين القوم أنه حيث بلغ عواؤه كان حمي لا يرعى "منطقة نفوذ.." وكان من جبروته وطغيانه كذلك أنه لا يتكلم أحد في مجلسه ولذلك قال أخوه مهلهل يرثيه بعد مصرعه:

نبئت أن النار بعدك أوقدت ... واستب بعدك يا كليب المجلس

وتكلموا في أمر كل عظيمة ... لو كنت شاهد أمرهم لم ينبسوا

بمعنى أنه لم يكن لأحد من أهل هذه القبيلة وما حولها أن يوقد نارا في حياة كليب، ولم يكن كليب يسمح – في حياته – بقيام مجلس للناس خلا

مجلسه. واجترأ الناس على الكلام بعد موته ولم يكونوا وهو حي، لينبسوا ببنت شفة..

احتكار.. احتكار حتى لمجرد الكلام.. إرهاب.. ذل بلغ ذروته ومداه.. مستضعفون يتحكم فيهم فرد.. لكنه.. عهد الفوضى وإهدار كرامة الإنسان، ولا بد من رجة يتساقط بعدها مثل هذه الثمار العفنة.. وكان القتل أقرب إلى الملك من حبل الوريد..

قصة قتل عبيد بن الأبرص الشاعر وهي المعروفة بقصة "يوم البؤس"، وفحواها أن المنذر بن ماء السماء كان في سكره فقتل نديميه ثم ندم؛ فبنى لهما قبرين وجعل لنفسه يومين في كل سنة: يوم البؤس، ويوم النعيم فمن طلع عليه يوم نعيمه أعطاه مائة من الإبل، ومن طلع عليه يوم بؤسه أعطاه رأس ظربان وأمر به فذبح فطلي بدمه القبران.. وكان من سوء طالع عبيد بن الأبرص أنه كان أول من طلع عليه في يوم البؤس، فشق عليه أن يحين أجله على يديه ولكنه قتله، وأكرمه بتخييره في قتله بين ثلاث قتلات، ولنا وقفة هنا فإن المسألة ليست مجرد قتل امرئ ظلما فحسب ولكنها مسألة حاكم وشخصيته.. فأي حاكم هذا الذي يشرب حتى يفقد وعيه كأي جاهل من العوام إلا أن يكون رقيعا فاسدا بل متهورا متهوسا لا يرعى للنظام حرمة بعد أن فقد شخصية الحاكم الجاد..

ثم أن مجرد تخصيص يومين أحدهما للنعمى والآخر للبؤس على هذا النحو لهو الجهل من حاكم ملك مفروض فيه العلم والحكمة والبعد عن

الخرافة حتى ولو عاش في عصر الخرافة لأن الحاكم شيء آخر غير الرجل العادي..

وهكذا وبنفس هذه الروح كانت تحكم مصر في عهد الأسرة التي ركلناها سنة ١٩٥٢ حيث رزحت تحتها البلاد من عام ١٨٠٥ فقد ثار إسماعيل صديق المفتش في وجه سيده إسماعيل باشا الخديو الفاجر لأنه سلك مسلكا لا يتفق مع القومية فبعث به إلى البحر الأحمر في رحلة الموت حيث قتل وثقل جسمه بحجر وألقي به في غيابة البحر يلتقطه بعض الأسماك..

ورحم الله ابن علي أيوب صريع الخسة والنذالة، ورحم الله عبد القادر طه.. ضحايا فاروق الملك الضليل.. هؤلاء هم الملوك وهذا حكمهم، ملعونون في التاريخ!!

وأفظع من هذا وأحط في امتهان كرامة الإنسان ما روي عن حكم "عمليق" ملك طسم وجديس[١] الذي قضى ألا تزف عروس إلى زوجها حتى تزف إليه هو أولا، وأن امرأة تدعى عفيرة – إحدى ضحاياه – رأت هذا العار على قومها، فما برحت تذرع الطرقات ممزقة الثياب يجللها عارها وقد سال دمها.. راحت تستثير نخوة قومها قائلة:

وإن انتمـو لـم تغضـبوا بعـد هـذه فكونـوا نسـاء لا تعـاب مـن الكحـل

---

(١) وردت هذه الحكاية في كتاب مجمع الأمثال للميداني.

ودونكـــم طيـــب العـــروس فإنمـــا خلقـتم لأثـواب العـروس وللنسـل

فبعـدا وســحقا للــذي لــيس دافعــا ويختـال يمشـي بيننـا مشية الفحـل

فلم تزل هذه حالها حتى هبت جديس على بكرة أبيها فانتقمت من الطاغية شر انتقام وأنقذت سمعتها وشرفها، ولم تتكرر هذه الواقعة المؤسفة بعد ذلك اليوم..

ثم ينتقل الشريط السينمائي إلى السنوات العشر الأخيرة السابقة لثورة يوليو عام ١٩٥٢، إذ انطلق المارد الجبار.. الملك السابق يفضح ويفسق ويجلل بالعار حتى كان مجرد ذكر اسم مصر في الخارج عارا ومسبة في جبين الإنسانية كلها.. كان هو وبطانته لا يتناهون عن منكر فعلوه. ما أن يسمع الفاجر بامرأة حلوة حتى يطلق زبانيته إليها يأتونه بها ليقضي منها الوطر، أو يتسلل هو كاللص إلى مخدعها بعد إيفاد زوجها في "مهمة مصلحية" خارج القاهرة وكان ينادي هو وأدواته بأن كل شيء في هذا البلد هو ملك "مولانا".. وكانوا يسمونه "الملك الصالح" وعهده "العهد الصالح" وحكمه "الحكم الصالح"!!. كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا..

ويعود بنا التاريخ القهقرى ليذكرنا بقصة عمرو بن هند مع عمرو بن كلثوم، فلقد أراد عمرو بن هند أن يجعل من أم عمرو بن كلثوم خادما لأمه فأرسل إليه "يستزيره ويزير أمه أمة" فأمرتها أن تناولها شيئاً فأبت ذلك وسمع عمرو بن كلثوم الحوار فثار الدم في وجهه فقام إلى سيف معلق

فتناوله وقتل به ابن هند.. وكتب الأدب والتاريخ حافلة بهذه الحكاية، فكان مما قاله عمرو بن كلثوم بعد أن اجتز رأس غريمه:

إذا بلـــغ الفطـــام لنـــا صـــبي تخـــر لـــه الجبـــابر ســـاجدينا

وهو من معلقته المشهورة...

أرأيت إذن إلى أي مدى كان العربي يفخر بنسبه ويعتز به ويحقر أخاه؟

يقول لنا ابن كلثوم أن الطفل منهم إذا بلغ مجرد الفطام وشب عن الطوق خرت له الجبابرة سجدا خضوعا وذلة فهو كالإله وهو بعد لما يبلغ حتى مبلغ الصبيان!. فبأي منطق كان يتكلم هذا الوغد؟ لقد قتل غريمه لأنه أراد أن يستذل أمه لأمه وحسبه ذلك فلا حاجة به إذن لهذه الأبيات التي تبين عن أفظع مظاهر الطغيان. ولكنها صورة لما كان يقع في شبه الجزيرة العربية وللحياة البشعة التي كانت تسودها قبل ظهور مُحَمَّد ﷺ..

كانت هذه هي حال شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام: حكم فردي مطلق، وتخبط في الجهل ونظام طبقات مقيت، بل أن زعماء القبائل أنفسهم كانوا ينددون بزعماء القبائل الأخرى، وهذا بلا شك ضرب من ضروب الأنانية والتأخر والجهل الذي أمسك بخناق العرب بغير ما وازع من دين ولا حافز من ضمير؛ فكانت الأسرة هي كل شيء في نظر أفرادها والآخرون هباء وكانت كل قبيلة هي كل شيء والأخريات هواء!.

فعلى أية صورة من صور الحكم كان مُحَمَّد ﷺ يحكم في الجزيرة العربية؟

الزلزال:

ثم حصلت الرجة الكبرى التي أيقظت ناسا ودوخت آخرين، بظهور مُحَمَّد بن عبد الله (ﷺ) بمكة عام ٦١١[٢] ميلادية، فتغيرت الأوضاع وتقوض الظلم وتبدد الظلام واستوت على الجودي، ورسا الحكم على أساس جديد يرضاه الشعب ويحكم هو لمصلحته وسعادته في معاشه ومعاده..

ولقد كانت نفوس الغالبية العظمى من العرب مهيأة لتقبل دعوة مُحَمَّد ﷺ، فما لثبت أن دخلت في دين الله بعد أن تأخرت قليلا لأنها لم تكن بعد قد آمنت بأن ما جاء به مُحَمَّد (ﷺ) حقيقة واقعة، فقد كان من المستبعد غاية الاستبعاد أن يقع شيء من ذلك بعد أن تمكن اليأس من النفوس وأضحى طريق الحرية شيئا أقرب إلى الخيال، بل لم يكن حتى ليروى كحكاية خرافية للتسلي وتعليل النفس بالأمل.

ولأن الدعوة نادت أول ما نادت بتحرير العبيد من ربقة الذل وفكهم من أسر العبودية، فقد آمن معظم الناس ليطرحوا عن مناكبهم هذا الرداء الذي خاطته الأجيال المتعاقبة بيد العسف والطغيان.. نعم كانت

---

(٢) ولد الرسول عليه السلام عام ٥٧٠ أو ٥٧١ ميلادية كما ورد في دائرة المعارف البريطانية، والأرجح ٥٧١ فبإضافة أربعين سنة يكون ظهور مُحَمَّد عام ٦١١م.

إرادة التغيير غير مستحبة ولا مقبولة أول الأمر عند الكثيرين من سادة قريش كعمر بن الخطاب لطول ما فعلته الأيام من ترسيخ العادات المرذولة وما لبث كل شيء أن تغير.

وأحس الإنسان لأول مرة من آجال سحيقة بأنه إنسان، بأنه سيد نفسه سيد مصيره، أحس بأن له حقا في حياة حرة كريمة، أحس بأن هناك فارقا بينه وبين الدواب التي يركبها ويتغذى بلحومها ويستقي بلبنها، وتحمله إلى بلد لم يكن ببالغه إلا بشق النفس..

قال تعالى مكرما الإنسان وعقله وتدبيره، ليزيل الفكرة التي وقرت في قلوب العرب، فكرة الاستعلاء هنا والخنوع هناك، وليقرر حقيقة وهي أن الناس كلهم من أرومة واحدة، وأن لكل امرئ حقه الكامل في الحياة الحرة الكريمة، لا فرق في ذلك بين سوقة وملك كبير ولا صغير.. قال تعالى: "وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ".

قال: "أتقاكم" ولم يقل "أغناكم". وقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ". ولم يقل "ابن حرة، وابن جارية" مثلا. كما قال عز من قائل: "لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ولا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ". والتمييز هنا بالتقوى "والقوم" هنا الرجال كما ورد في شتى التفاسير..

وصدرت عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة من مناسبات متعددة، وفي خطبه كانت انعكاسات لكل هذه المعاني الإنسانية الخالدة. قال صلى الله

عليه وسلم: "كلكم لآدم وآدم من تراب"، فليس بعضنا من خزف أو ذهب إبريز!.. و"الناس سواسية كأسنان المشط". وقال كذلك: "ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى".

كرَّم الله تعالى الإنسان– إذن– وذكر هذا التكريم صراحة في كتابه العزيز حين قال: "ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ والْبَحْرِ ورَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً". وجعل مصيره بيده بما نبهه إليه وناطه به من الإرادة والمسئولية، لا أحد يسوده ولا شيء يتحكم فيه إلا عقله، وزاد من تكريمه بأن حباه المسئولية وبين له صراحة أنه مفكر، وأنه ما منح هذه النعمة إلا ليسلك السبيل الذي يراه، فهو وحده الذي يسلك السلوك الذي يذهب به يمينا أو شمالا فيكون من أهل الجنة أو يكون من أهل النار..

قال: "ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى". وقال: "وهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" أي السبيلين أو الطريقين. وقال عز من قائل: "إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِرًا وإمَّا كَفُورًا". فجعل له الخيرة في سلوك السبيل الذي يروقه ويرضاه.كما قال: "كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا". يحسب حسناته وسيئاته مما ادخر لأخراه..

وبجانب هذا الكثير العديد من الآيات والأحاديث مما لا يكاد يقع تحت حصر. إنها حرية مقصورة محددة بقانون سماوي هو القرآن دستور هذه الأمة، وليس ثمة ديمقراطية بتاتا بغير حرية فرد. وأين تكون الديمقراطية

إذا كان الشعب مكمم الأفواه يحكم بالنار، ثم كيف يحس الشعب بأنه سيد نفسه وأنه محرر من قيود الذل إذا كان حكامه قد سدوا أمام وجهه سبيل النور بالجهل الذي يقرضونه عليه، كما يفعل المستعمرون اليوم بالشعوب المغلوبة على أمرها؟ وأنى يرى النور من جعل في غرفة مغلقة ليس فيها نوافذ وكلها ظلام متراكم بعضه فوق بعض؟.

كانت الجزيرة العربية هي تلك الغرفة المظلمة وفيها جميع العرب في سجن مسجون لا يحسون الفارق بين الحرية والعبودية لأنهم يتخبطون في ديجور يحجب عنهم نور الحرية، ولا من نسمة ولا عبير ولا من نأمة ولا حفيف، حتى نفذ شعاع من وراء ذلك الجدار السميك الضارب بكثافته على البلاد كلها، وإنه لشعاع أقدر على اختراق تلك الكثافة التي ضربتها الحقب والآماد الطويلة عليه.

كانت الجزيرة العربية– إذن– تحكم بالجهل ولا تحلم بيوم الخلاص وكان الظلم يلقي بجرانه على كل مكان من شبه الجزيرة من تخوم الشام حتى المحيط الهندي، ومن البحر الأحمر إلى الخليج الذي كانوا يسمونه خليج فارس. تماما كما كانت الحال في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية حين لم يشعر الناس بالظلم إلا بعد أن أثارتهم كتابات المفكرين من أمثال: روسو وفولتير ومونتسكيو، لأن المظلوم الذي يحس بالظلم إذا جمع بين الظلم والجهل لا يثور حتى ينبهه مفكر أو عالم إلى أنه مظلوم، وأنه في الحضيض وغيره في الأوج وأنه في حق الحياة والعيش أقل منه بمراحل..

وهل خرجت تعاليم روسو وأصحابه عن تعاليم مُحَمَّد ﷺ؟ وهل انبثقت إلا منها؟ "حرية، إخاء، مساواة".. وهل نادى مُحَمَّد ﷺ بغير هذا ودعا لغير هذا؟

إن مجرد تأدية الفروض الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج ونطق بالشهادتين هي في ذاتها مساواة، لأنها فرض مفروض كل الكل بالسوية والقسطاس؛ فالناس في كل هذه التكاليف آحاد متساوون فلم يفرض على الغني صلاة ركعتين والفقير خمس ركعات وكانت نسبة الزكاة واحدة فرضا على الجميع بنسبة رأس المال، والناس حين يصلون يتخذون هيئة واحدة ويقفون في صلاة الجماعة جنبا إلى جنب، لا يتقدم حاكم على محكوم وإنما يتقدم الكل "أمام" ليكون النظام وتكون القيادة..

لقد صحا الناس من نومهم على زلزال.. زلزال قوض أركان الفساد الذي استشرى ودك معاقل الشرك وثل عروش الطغيان فانهدمت حيطان الرجعية واندكت صروح العبودية وخر الناس كلهم على رمال الصحراء بعضهم سجد لفاطر السموات والأرض، وبعضهم مكب على وجهه لأن قلبه كان عليه قفل محكم الإغلاق لم تستطع الرجة الكبرى أن تحطمه من على قلبه لينطلق القلب فيتحسس ذلك الشيء الجديد.

ولأول مرة في التاريخ بعد أن استتب الأمر للداعي الأعظم عرف الناس في شبه الجزيرة العربية معنى الحكم الديمقراطي، نعم لم يعرفوه بمعناه

الرسمي وصيغته الحالية ولكن بواقع تلك الحياة الجديدة التي أهلت عليهم من فوق شرفات مكة فدخلوا الحرية من أوسع أبوابها.

لقد أحس العربي بشيء جديد يتمشى في أعضائه، أحس بالراحة وتنفس الصعداء، وتمل من ذلك الهدي الجديد الذي دب في جسده وتمتع بالراحة النفسية بعد طول قلق وحيرة، وتمنع في صرح من العزة والمنعة، عزة الفرد وعزة الجماعة الصغيرة وعزة الأمة المتحضرة الجديدة، وعزة الوحدة التي لمت الشمل وجمعت الشتات، وأقامت من الحصى والحصباء المتناثرة في شتى مناحي الجزيرة صرحا عظيم البناء عاليا يراه العالم كله في كافة بقاع المعمورة من كل مكان.. إنه الصرح الذي بناه مُحَمَّد ﷺ وعترته الصالحة المؤمنة الخيرة الطيبة المفكرة: أبو بكر وعمر والرعيل الأول من صالحي المؤمنين..

ورأى العربي في هذه الدعوة الجديدة التي كان يقوم بها رجل فاضل نظيف كل ما يريد الإنسان من حرية وعزة، لم يجرؤ بل خجل أي كافر وعدو من أعداء الدعوة أن يقول عنه أنه عاش في شبابه عيشة غير نظيفة، أو أن في تاريخه شيئا يعيبه كزعيم وصاحب دعوة. كل ما قالوه عنه: أنه ساحر أو كذاب، قالوه طعنا في دعوته وإذا كانوا قالوه في شخصه – كذبا – فما قالوه إلا كطريق غير مباشر ليكون مطعنا في دعوته التي لم ترقهم، ولم ينسبوا هذه الصفات لخلقه الشخصي الأصيل، ولم يسبوا ماضيه قط ولو فعلوا لما صدقهم أحد، لأن الأفراد في ذلك العهد كانوا قليلين، وأعمال الناس مكشوفة للجميع، وما قالوا ذلك إلا صدا عن دعوته التي

آذتهم في عنجهيتهم، وأرغمت أنوفهم واعتدت على كبريائهم ورذائلهم، أو لأنهم استبعدوا نزول الوحي..

وبذلك تقبلت الأغلبية الدين الجديد، لما تبين لهم أنها لم تكن قصة كأساطير اليونان أو قصص أسفنديار والأكاسرة، وأنها كانت واقعا لا ريب فيه ولا محال، وفتحت العرب ذراعيها واعتنقت الدين الجديد. اعتنقت الحرية واعتنقت الفكر المتحرر والحضارة والحب، ثم اعتنقت الموت في سبيل المبدأ الذي تمكن من نفوسها لبراءته وكرمه وطهره ونبالة مقصده.. أما الأقلية التي ورثت الإقطاع والاحتكار ورأس المال المستغل كابرا عن كابر فقد أبت واستكبرت وعلت علوا كبيرا وعتت عن أمر ربها.. وما فتئت تلك الأقلية بعد أن دوخها الزلزال تستجمع قواها وتشرب خمرها وتستقسم بأزلامها وتجمع عبيدها وتتوسل بأصنامها وتتسول أعوانها وتقامر بمستقبلها كله في محاربة الدين الجديد.. استجمعت كل ما تملك من مال ومتاع وختل وخيانة وقدرة على حوك المؤامرات وحبك الدسائس للنيل من الداعي وإحباط عمله وتفويض حركته التي جاء بها من عند الله للتوحيد به والاعتراف بكرامة الفرد وقداسة الحرية لكل إنسان، وهذا أمر غير مستبعد من كل فاجر سفاح.

وأخيرا.. جاء الحق وزهق الباطل وانتصرت إرادة الخير وإرادة التغيير، وآن للإنسان أن يرد إليه اعتباره وتعاد إليه آدميته، وأصبح حرا من تحكم أخيه ابن آدم مثله حتى ولو كان مولى مملوكا، فقد قضى الإسلام بحسن معاملة الموالي وما ملكت الإيمان على قدم المساواة مع العشيرة والأهل

كالأبناء سواء بسواء. وأصبح لزاما على كل فرد بمقتضى تعاليم الدين الجديد أن يعمل عملين: عمل الدنيا وعمل الآخرة من سعي للمعاش ومن عبادات ونحوها، كل مسئول عن عمله في الدنيا وفي يوم القيامة فلا يؤخذ زيد بجريرة عمرو، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وكل نفس بما كسبت رهينة والكافر إلى سقر، حتى ولو كان أبوه مسلما موحدا، وحتى لو كان نبيا مثل أبي البشر الثاني.. نوح! قال: "سآوي..!" قال: "لا عاصم.." صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم..

حرية السلوك.. والمسئولية!:

بهذا كله كرم الله الإنسان وعبد له طريق الفكر الحر وحمله المسئولية فقوله تعالى: "ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"– أي لا يحمل مرتكب الذنب أو حامل الحمل حمل غيره– خير مصداق على هذا الذي ذهبنا إليه..

ثم قال تعالى: "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ولَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ولا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ". وهذا واضح في هذا المعنى ولا يحتاج إلى إيضاح، فكل مسئول عن نفسه وليس عن غيره أفرادا وأمما. والمسئولية تتطلب الجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر.. وقال: "وأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَى" وهنا قصر بالنفي والاستثناء فقد قصر ما سعاه المرء عليه هو أي قصر سعيه عليه، فلا يقال له يوم القيامة: "لماذا فعل فلان هذا؟ بل: لماذا فعلت أنت هذا؟".

ثم.. "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ". "بما كسبت" لا بما كسب غيرها..

"ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ" كل شيء بميزان وقسطاس، ميزان دقيق بحسب العمل والسلوك "فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ، وأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ، ومَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ، نَارٌ حَامِيَةٌ".

فكل ما ورد في القرآن على هذه الصورة يقدس العقل ويقدره ويرفعه فوق كل شيء، وهو في نفس الوقت يحفزه على العمل، فهو لم يعطه حرية السلوك يستخدمها حيثما اتفق وكيفما كان – جزافا – وإنما رسم له الطريقين، وشرح له كل مقومات الخير والشر وأسس الصلاح والطلاح، ووضع له القواعد فشرع له وأبان له كل ما ينفع الإنسان في معاشه، ومعاده، ثم لم يرغمه في نفس الوقت على اتخاذ طريق معينة بل خيره وأعطاه العقل المميز وحرية ذلك العقل في الاختيار ليسأله في نهاية الشوط "ماذا فعلت؟.. قدم لنا كشف الحساب"!

ولم يتركه اعتباطا يتخبط عن جهل، بل علمه من ناحيتين ناحية تلقائية بما يكون على صفحة خلده من مبادئ معرفة عن العالم الذي نزل إليه طفلا، ومن البيئة التي يعيشها بالتأثر بمن هم أكبر سنا كالأب والأم والأخوة والكبار وبمحاكاتهم ثم التعلم بطريق المدرسة فهو حر إذن، فليس له عذر إن هو غدر أو أهمل.

وفرض عليه العقوبة بذلك لأنه أعطاه الحرية في العمل ولم يرغمه على عمل معين، وليس أوضح في الدلالة على الحث على العمل وتحمل

المسئولية بما يحمل في طياته معنى العقوبة من هذا الحديث الجامع الشامل اللام، وهو تأكيد الرسول ﷺ لمسئولية الإنسان وهو في الوقت نفسه رسم للمعاملات، معاملة الإنسان نفسه ومعاملته ربه ومعاملته للناس، فالمسئولية التي نص عليها الحديث الشريف مسئولية أساسها العمل.. قال ﷺ:

"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته: الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته".

الآن.. بحثنا هذا الحديث أولا وقبل كل شيء على الأمانة وتبادل الثقة من الإمام وهو الحاكم أو الوالي الذي انتهت إليه مقاليد الأمور حتى الخادم الذي يقوم بأقل الأعمال جلالا وقيمة، لأن كل من ذكره الرسول من هؤلاء يقوم بعمل يخدم به الجماعة..

فالإمام أي الحاكم مسئول عن المحكومين في إقامة العدل ومكافحة الأمراض وتوفير المأكل والملبس والطمأنينة والاهتمام بالزراعة والري والنهوض بالصناعة والتعليم كل ذلك لمنفعة الشعب.. ورب وربة الأسرة مسئولان عن الأبناء والخدم من تربية للأبناء ورعاية للخدم.

والخادم الذي يرعاه سيده بحسن المعاملة وكفالة الراحة والطمأنينة، والعيش المستريح من مأكل وملبس ومسكن وتقدير مادي لعمله، هو الآخر مسئول عما نيط به من أمانة البيت، فلا يقصر في تنظيف أو إعداد

طعام، ولا يهمل في تربية أطفال ولا يبطئ في قضاء الحاجات ولا يغش في ميزان ولا يسرق مال سيده على أية صورة كانت..

وتتطلب هذه الرعاية من كل مسئول السهر على من يرعاهم والعمل الدائب من أجل الذين هو مسئول عنهم مهما كان عددهم ومهما تفاوت ذلك العدد من شعب بأسره إلى أفراد أسرة واحدة أو فرد واحد كخادم مثلا.. لكيلا ننام عن مصالحنا ومصالح الآخرين فتضيع المصالح ويضيع الناس:

ومن رعى غنما في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

نعمل نهارا نعم الكادحون حتى إذا كنا أجنة في بطون الليل استسلمنا للكرى مطمئني الجنوب في المضاجع أن أعطينا كلا ما يستحقه وأعطينا كل ذي حق حقه..

فأي حديث بعد هذا يفرق بين الحق والباطل ويرينا الطريق السوي في النور، أن من حق المرعي أن يخلص له راعيه ومن واجب المرعي العمل لمنفعة راعيه والسهر عليها..

وحسبنا هذا شاهد صدق على ديمقراطية مُحَمَّد فليس وراء المزيد والإكثار إلا الملال والتكرار.. لقد كان النبي من السهر واليقظة بحيث يجعل الحرص ديدنه فيضع دستورا لجميع الأفراد بحديثه الآنف وهذه سمة الحكم الصالح..

بهذه الديمقراطية والحكم الصالح الذي يحدد الاختصاص ويبين مكان الواجب بلا حقد ولا كراهية– بهذه الديمقراطية كان مُحَمَّد ﷺ يحكم الجمهورية العربية الجديدة الناشئة.

كل فرد في الدولة مسئول وعامل وعلى كتفيه حمل..كلكم راع.. كل فرد: الصغير والكبير من رئيس الدولة إلى الخادم.. بهذا اطمأن الناس في الجزيرة العربية على أموالهم وأعراضهم فزاد الإنتاج وفتح باب العمل ففتحت الأمة ذراعيها واعتنقت الدين الجديد..

أما وقد ضمن كل امرئ حقه بلا غائلة ولا اغتيال فهو لن يتردد في أداء واجبه نحو مجتمعه سيؤديه مختارا راضيا، بل أن من الناس من نزل عن حقه في الغنى والكفاية، حقه الموروث عن آبائه وأجداده بل والطمأنينة، واحترف الجهاد في سبيل الله استشهادا وتضحية من أجل نشر العقيدة لنجاحها حتى يحق الله الحق بكلماته..

لقد عمل العربي إذن في تفان وتضحية وحب لأن العمل زكاة الصحة والإخلاص طمأنينة وأمن، وأن من دواعي الديمقراطية أو الرعاية، أن يخلص المسئول لمن هو مسئول عنه وهو مسئول أمامه.. اتكال في غير تواكل.. عمل من أجل الفرد والجماعة لا من أجل حفنة من الإقطاعيين والاحتكاريين بل للكل، للجميع! يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب.. أما أن يترك الحب في الخزائن ويرجى منه الثمار فلا، فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة..

حكم شورى.. تعاليم كلها لصالح المجموع حكومة من الشعب وللشعب والشعب عنها راض فقد رسمت له طريق النجاح: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" لقد عرفها الفرد العادي وعرف نبالة مقصدها وسبيلها إلى هذا المقصد، وأدرك كم كانت تلك الحكومة مخلصة له وجادة وعاملة من أجله، لا من أجل شرذمة من الإقطاعيين والمحتكرين وأصحاب الضياع، وساهرة على راحته راحة الفرد العادي، وليست تعيش في برج عاجي مبطن داخله بالدر والجوهر كقصور ألف ليلة وليلة يأكلون الفطائر ويتقلبون في أحضان الحرائر، والشعب بائت على خمص يتململ على جمر الغضى ويتقلب على شوك القتاد..

حكومة "ديمقراطية" بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى، الحاكم فيها هو سيد الدولة والحاكم فيها هو خادمها الأول..

مبدأ الشورى في التطبيق العملي:

ولقد اتبع الرسول ﷺ ما أمره به ربه بحذافيره، وهل جاء مُحَمَّد إلا لهذا؟ وهل كان مُحَمَّد إلا سفيرا ومبلغ رسالة؟! اتبع مبدأ الشورى اتباعا دقيقا: "وشاورهم في الأمر"!.

وشواهد كثيرة تنهض مصداقا لذلك، فلقد استشار الناس في الأسرى يوم بدر وهل يضرب أعناقهم قال: "إن الله قد مكنكم منهم". فقام عمر فقال: "يا رسول الله اضرب أعناقهم". فأعرض عنه النبي صلى

الله عليه وسلم وقال: "يأيها الناس إن الله قد مكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس".

فقام عمر مرة أخرى وكرر عبارته.. فأعرض عنه ﷺ، ثم عاد فكرر ما قال؛ فقام أبو بكر فقال: "يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، قد أعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم. أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة على الكفار وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لنا عضدا".

فدخل رسول الله ﷺ البيت من غير أن يقطع برأي في الموضوع، ثم خرج بعد قليل فقال:

"إن الله ليلينن قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدن قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة! مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم حيث يقول: "فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ومَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"، ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال: "رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ولا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا".

ثم قضى الرسول ﷺ باستبقاء الأسرى وقبول الفدية منهم، ثم نزل الوحي بعد ذلك بتفضيل رأي عمر.

يقول تعالى: "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا واللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ".

ثم غفر الله لرسوله ولأبي بكر وثلة الصحابة هذا الرأي فقال تعالى: "فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا".

الآن.. لم يقطع الرسول عليه السلام برأي في مسألة أسرى بدر حتى يستشير وجوه الرأي من الصحابة عملا بمبدأ "وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ" الذي هداه إليه ربه، ولم يستقل برأيه، ولو أنه فعل ذلك فقضى بأحد الرأيين هذا أو ذاك وحده، لما كان ملوما أمام العرب، لأن مُحَمَّدا ﷺ مبرأ عن الهوى فهو صاحب رسالة سماوية، وهو أرجح العرب عقلا، فهو المختار دون سائر العرب لحمل الرسالة وتبليغها، وتنفيذ ما جاء فيها ممثلة في القرآن بكل دقة وأمانة وهو من هو من الأمانة والصدق والعرب مسلمون له بأي رأي يراه وشعوره ومسلكه بوحي "ومَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاَّ وحْيٌ يُوحَى".

لكنه ﷺ أراد وفعل فعلا أن يرسم لنا طريقة الحكم وما ينبغي أن يكون عليه الحاكم من السماحة والتواضع والديمقراطية ومجانبة الاستبداد، فضرب بذلك المثل الأعلى في ديمقراطية الحكم.. والأروع من هذا في هذا الباب تفضيل الله رأي عمر على رأي النبي وصاحبه الأول تأكيدا لمبدأ الشورى، ولم يجامل الله تعالى نبيه ليلصق به قدسية الرأي وإنما عاتبه خفيفا وهو الذي أمره بالشورى، وبين له أنه بشر يخطئ ويصيب، وأن نظام

الشورى تمحيص للرأي، لا استقلال فرد برأيه في مثل هذا الأمر الجلل أمر أسرى بدر، ولو كان هذا الفرد نبيه المختار..

والأغرب والألصق بموضوعنا في هذا الباب، الذي يحتاج إلى تأمل أن الرسول عليه السلام ولم يستشر الرجال فحسب بل استشار ذوات الرأي والحجاج من النساء كذلك، وبهذا رفع من قدر المرأة، في وقت كانت المرأة فيه كما مهملا ودمية للمتاع ومعمل تفريخ إن قدر لها أن تنجو من الوأد فقضى بذلك على الأفكار الرجعية البالية وجعل بذلك الوأد شيئا من مخلفات الجمود.. فلقد كان للمرأة رأيها في التشريع ونظام الحكم وفي فعال الرسول وتصرفاته..

قال ﷺ: "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" يريد عائشة، وكان يكبرها بأكثر من أربعين سنة.. بل لقد كانت زوجاته يراجعنه "حتى يظل يومه غضبان" كما قالت زوجة عمر لعمر فأهاجت لواعجه فانطلق إلى بيت ابنته عصبيا في حدة حتى استيقن من صحة ما قالته له امرأته فسكت..

ولم يجعلها مُحَمَّد ﷺ متاعا يوضع في الركن، وإنما ركن هو إليها في كثير من الأمر، وأصبح للمرأة بمقتضى التشريع الإسلامي الجديد مالها المستقل عن زوجها تتصرف فيه كيف تشاء وأن توكل عنها من تشاء، وذلك دون أن يكون لزوجها سلطان عليها في هذا كله..

بخ! بخ! لقد ارتفعت مكانة المرأة في ذلك العهد السحيق حتى لتكون مصدرا للتشريع يستقي منه الرجال والنساء في أمور دينهم ودنياهم، وتكون نساء النبي بمثابة "كليات" يغترف المسلمون من مناهلها ويرشفون من وردها، تعقد لهن الحلقات للدرس والموعظة الحسنة فيشرعن ويفتين، ولعل هذا من أكبر الدوافع على زواج النبي بأكثر من واحدة...

ولا ريب أن ما قصد إليه الرسول في قوله: "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" يشير في ثناياه إلى العلم الواسع العريض الذي كانت تتمتع به السيدة عائشة، ولا بدع فمحمد (ﷺ) هو معلمها وقد أمضت شطرا من عمرها في كنفه: زوجته وصاحبته. ويشير كذلك إلى التشريع الذي انتفع العرب منها به: من زواج ومواريث وأحكام صلاة ونظم معاملات ودين. وهذا غاية الديمقراطية حتى لقد جرؤت هي أن تعارضه في مسألة اختيار أبيها ليصلي بالناس عندما مرض الرسول مرضه الأخير الذي لاقى بعده ربا كريما. بل أتت معها بحفصة بنت عمر إحدى زوجاته الأخريات تؤثر أباها على أبي بكر بالصلاة، لأن الصلاة سوف يعقبها تولي أمور المسلمين، أي خلافة الرسول في الحكم، فإن الصلاة إمامة، والإمامة قيادة والقيادة رياسة وحكم.

ولقد عاشت السيدة عائشة بعد النبي سنوات لتكون هي الينبوع الأول في رواية الحديث والسنة "ماتت في رمضان من سنة ثمان وخمسين من الهجرة".

ولقد عرفت قيمة المرأة على وجه التحديد فوضع الخاتم الذي دمغ بالبرهان كل انحراف عن فكرة أن المرأة لم تزل بعد ظهور الإسلام ترسف في أغلال العبودية، وذلك من نص الآية التي تقول: "النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ" (سورة الأحزاب)

فإن الأم رءوم وحكيمة، وأمهات المؤمنين لا يصفهن الله كذلك ما لم يكن على علم وخبرة بشئون الدين، لأن الأم مربية والأمهات في الإيمان معلمات، ثم أن الله تعالى قرن النبي بأزواجه في معرض الرحمة والحرص والحب والرعاية وكونه أحن على المؤمنين من أنفسهم يستتبع إيراد عبارة "وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ" بمعنى أن تكون الأمهات على هذه الشاكلة من الحب والحرص والعطف السابغ..

ولقد بلغت ديمقراطية الرسول عليه السلام مبلغها السامق الرفيع في موضوع صلح الحديبية "في السنة السادسة من الهجرة" واستشارته أم سلمة إحدى زوجاته في موضوع التحليق..

فلقد كان في موقف النبي ﷺ في هذه المسألة بعينها بعد الخلاف الذي ثار حول اعتبار صلح الحديبية تسليما من النبي لعامة المشركين بعد انتصار ساحق ظفر به المسلمون، لقد كان في موقفه ذاك في استشارته أم سلمة في هذه المسألة آيات للسائلين.

ذلك بأن أصحاب النبي ﷺ خيل إليهم أن صلح الحديبية كان خسفا بالمسلمين إذ كانوا هم الغالبين في المعركة إلى حد أن عمر نفسه ما

فتئ يعلن ضجره وتأففه لأبي بكر الذي كان هو الآخر على شيء من الضيق برغم أن كان هو المؤمن الأول والمصدق الأول، الذي صدقه في موضوع الإسراء دون أن يسأله أحقا كان ذلك أم كان حلما، وبرغم أنه كان يسلم دائما تسليما مطلقا لكل عمل يراه مُحَمَّد صوابا. لكن عمر الذي عرف عنه ما عرف من الشدة على أعداء الله لم يكن ليقبل مثل هذه الشروط التي خالها مجحفة بالمسلمين، ولم يكن عمر الجاد العنيف الصلب العود ليقبل مثل هذا التسامح مع الكفار أعداء الله على الصورة التي كان عليها صلح الحديبية[٣].

ولما استفحل الأمر وتقلصت الشفاه وغلت الدماء حارة في أوعيتها وأصبحت الحالة تنذر بشر مستطير أمر الرسول أصحابه بأن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا، فما قام منهم رجل واحد، أمر الرسول بذلك ثلاث مرات ولا من مجيب، فدخل على أم سلمة ﵂ فذكر لها عناد القوم. قالت: "يا نبي الله.. أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك (البدنة في اللغة: الناقة البدينة) وتدعو حالقك فيحلق لك".

وعمل الرسول عليه السلام بمشورتها، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا هم الآخرون فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما وندما. وثاب المسلمون إلى صوابهم بعد أن كان الهوى قد

(٣) تبين للمسلمين فيما بعد أن شروط صلح الحديبية كانت في صالح المسلمين أنفسهم، وأن الكفار خدعوا، وهذا مما زاد من يقين المسلمين في النبي، وأنه من عالم السياسة في مكان الثريا، وكم كان دبلوماسيا في صياغة شروط الصلح.

تحكم فيهم، فأدركوا بعد روية وإعمال فكر، وبعد فترة كافية للتطبيق العملي كم كانت شروط صلح الحديبية مجحفة بالكفار لا المسلمين، وأن النبي عليه الصلاة والسلام قد خدع الكفار لصالح المسلمين وكم كانت سياسة رشيدة.. سياسة النبي تلك، فلقد اعتنق الإسلام بعد صلح الحديبية عدد وافر من كفار قريش.

هذا رأي سيدة، قومه النبي وقدر ما فيه من أصالة وحكمة، فأخذ بمشورتها وعمل وفق ما ارتأت فأتى بأعظم الثمرات.. أو ليس هذا من أصول الديمقراطية؟.

أو ليس هذا من مبادئ الشورى الإسلامية التي حث عليها القرآن ورسمها لتكون سبيل النجاح في دولة ناشئة تحتاج إلى النظام والسماحة لتقف على قدميها.. أمام المعارضين المتزمتين الرجعيين وهم من هم القوة والعصبيات؟

حكم يرضاه الشعب ويؤيده ويستريح إليه.. رأى في السياسة والاجتماع.. من سيدة!. في عهد كانت المرأة فيه كما مهملا لا في العير ولا في النفير، وإنما هي حلية للمتاع وآلة للطهو والغسل أو معمل لإنجاب الذرية وحفظ التراث.

اللهم إلا تكن هذه هي الديمقراطية الأصيلة فأين تكون إذن؟

إنه هو التقدم الفكري والحضاري بأعلى درجاته وأجلى مظاهره، وإنا لنسوق هذه الحادثة بعينها للرد على أولئك الرجعيين والمتزمتين الذين ينكرون على الزوج استشارة زوجته في أمر يتعلق بأسرة صغيرة تعداد أفرادها لا يزيد – عادة – على عشرة أنفس.

يستشير امرأة! لقد دس كرامته في التراب!. إنما هذا أس الجهالة ورأس التأخر، وإنما هؤلاء أصحاب رأي تافه فطير يجب أن يدفن في رمال الماضي الذي ولى بعكره وانحطاطه.. ولقد عمل الرسول برأي زوجته وهي امرأة، وذلك في أمر جلل يتعلق بشئون أمة ناشئة أقل خطأ يودي بها، وكان ينذر بشر مستطير لولا أن اتبع هذا الرأي!.

أو ليست هذه مرة أخرى، هي الشورى كما أمره بها ربه؟! أو ليست هي الديمقراطية السليمة والتقدمية الصالحة لكل عصر وجيل؟ اللهم أشهد..

ديمقراطية الحكم بين الشكل والمضمون:

لقد وضع فقهاء القانون المحدثون صورا واصطلاحات معينة لنظم الحكم الديمقراطي استنباطا من أحكام القدامى في هذا الشأن مثل أرسطو؛ فالحكومة الديمقراطية في العرف الحديث هي تلك الحكومة القائمة على "برلمان" أو "مجلس أمة" أو "مجلس طبقات أمة" أو "مجلس نيابي" أو "مجلس شيوخ" مع "مجلس نواب" أو "مجلس عموم ومجلس لوردات"، وبجانب كل هذه دستور وحزب معارض وصحافة حرة وحرية رأي.. وهذا كله قريب مما وضعه أرسطو.. فما هذه؟..

هذه هي الصورة الحقيقية التي يجب أن يكون عليها نظام الحكم الديمقراطي تطبيقا وعملا، ولكن، هل يدل قيام مثل هذه المؤسسات والمصطلحات بحكم الواقع العملي على أن الحكم ديمقراطي سليم، مادامت الدولة تتمتع بمجلس نيابي وصحافة حرة وحزب معارض وحرية رأي؟.

دعنا نتسلى قليلا في "الانتراكت"!. دعنا نتسلى بما كان يقع في الانتخابات في العهد البائد، ثم كانوا يسمونها "انتخابات حرة" تعبر عن إرادة الشعب وعن حكم يرضاه الشعب..

زعيم في العهد البائد كان أنصاره يعدون بمئات الآلاف لذلك العهد سقط في انتخابات مجلس النواب في إحدى السنين في دائرتين ولم يتجاوز عدد الذين انتخبوه عدد خدم بيته وما ذاك إلا لأن حكومة الحزب

المعارض هي التي أجرت عملية الانتخاب، فكانت حسنة السبك جيدة الطهو بأمر من حاكم البلاد الشرعي!.

ولنضحك قليلا من مظاهر الفساد وسوء الحال لذلك العهد، كيف كان المرشح يرشو الناخب؟ كان الجنيه المصري يشطر شطرين يمنح للناخب نصفه قبل الانتخاب والنصف الآخر بعده إذا أثبت الناخب أنه انتخب المرشح إياه. ولم يكن من العسير معرفة ذلك، لأن الاقتراع السري لم يكن سريا!.

وكانت عملية الانتخاب يجريها الملك والإنجليز لمصلحة الحزب الذي يتواطأ معهم على المصلحة المشتركة بين هذا الحزب والملك والمستعمرين الحمر. إلى حد أن بعض المرشحين كتبوا في لوحات دعايتهم الانتخابية "انتخبوا فلانا مرشح الملك"!. فهل كان مثل هذا المجلس يمثل الأمة ويعبر عن إرادة الشعب فيكون الحكم بذلك ديمقراطيا؟. كلا.. بأية حال!.

كانت الحكومة من ناحية المظهر ديمقراطية بكل معاني الكلمة فمنذ دستور سنة ١٩٢٣ لم يعطل البرلمان إلا لفترات قصيرة، وبمناسبات معينة، فكانت الدولة تتمتع ببرلمان منتخب تمويها على الشعب وتضليلا. فإن نظام الحكم ذاك في جوهره ومن وجهة التطبيق العملي لم يكن نظاما ديمقراطيا قيد أنملة، كان هو حكم الأقلية حكم الملك والشرذمة العاتية من حوله، وهم حفنة الإقطاعيين والانتهازيين وأصحاب رءوس الأموال.

ثم أذن عليهم مؤذن الفناء والاضمحلال فانجابت غياهب الظلمة وذهب إلى غير عودة هؤلاء الأجانب وأذنابهم "الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد".

ومن أطرف ما قرأته عن التناقض العجيب في نظام الحكم، النظام الذي كان معمولا به في عهد أسرة تيودور بإنجلترا، الأسرة التي انتهت بموت الملكة إليزابيث الأولى سنة ١٦٠٣، فقد كان نظام الحكم هناك أوتوقراطيا لكنه كان أوتوقراطيا لصالح الشعب!.

ولعلم ملوك هذه الأسرة أن الشعب الإنجليزي شعب متمسك بالتقاليد، وهو أعرق الأمم في الدساتير، فقد منحوا الأمة برلمانا منتخبا، لكنهم كانوا إذا أرادوا إنفاذ أو تعطيل قانون جمعوا النواب سرا وشرحوا لهم عواقب الموافقة أو عدم الموافقة على القانون المعروض عليهم، وقد يعمدون أحيانا إلى الرشوة أو التهديد بالاضطهاد أو غيره؛ وبذلك كان البرلمان صوريا وكان الحكم أوتوقراطيا فرديا لصالح الشعب!

أي أن الحكم كان حكما ديمقراطيا سليما من الناحية الشكلية ومن الناحية العملية أوتوقراطيا عادلا لمصلحة الشعب. وقد لجأت تلك الأسرة لهذا الإجراء لتدعيم مركزها في نظر شعب يعتبر أعرق الأمم في العالم في النظم الدستورية.

من هذا كله يتبين لنا بجلاء أنه لا الانتخاب ولا المجالس النيابية بمانعة من طغيان الفرد وكبته حرية الشعب الذي يحكمه وأن المجالس النيابية –

على العكس– ربما كانت ستارا يخفي "ما وراء الكواليس" من جرائم لا تحصى تبيت بليل ضد أصحاب البلاد الأصليين (الشعب).

بمعنى أن الحكم قد يكون ديمقراطيا من ناحية الروح والعمل ولا يستلزم ذلك حتما وبالضرورة أن يقوم مجلس نيابي، فإن قام مجلس نيابي بجوار حكم صالح كان هذا أعلى صور الديمقراطية كما هي حال الحكم اليوم في إنجلترا والولايات المتحدة وفرنسا ودول اسكندناوة.

بمعنى أن الحكم ربما كان حكما ديمقراطيا، لكنه غير نيابي وربما كان نيابيا وغير ديمقراطي، وقد يجمع بين الشيئين معا: الديمقراطية والنيابة.

وهذا لا يغير من رأينا بتاتا في حكومة مُحَمَّد ﷺ، بل ينطبق تماما على ما قلنا فإن النظم النيابية الحديثة لم تكن قد ارتقت بعد، بل لم تكن قد وضحت معالمها في ذلك العصر البعيد. فبأي نظم الحكم كان مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم يحكم في شبه الجزيرة العربية؟

ديمقراطية الحكم لعهد النبي صلى الله عليه وسلم:

الآن وقد عرفنا على وجه التحقيق ماهية الديمقراطية من حيث الصورة والمضمون، أو النص والروح، أو النظرية والعمل، دعنا ندرس بالنتيجة نظام الحكم لعهد النبي ﷺ– وبالتفصيل..

وسنرجع في ذلك إلى مصدرين: أولا آراء كتاب الغرب المحدثين في نظام الحكم لعهد النبي. وآخرا واقع الحال وطبيعة الأمور هناك، وما ورد

في القرآن والحديث من شواهد نوع معين من الحكم، أفصحت عنه تلك الآيات والأحاديث، وحثت عليه وجاءت تصويرا له لأنها نفذت بنصها مما كان تطبيقا عمليا وحرفيا لما جاء فيها.

لأن مُحَمَّدا ﷺ لم يكن نظريا ولا رجل خيال ولا شاعرا يقول ما لا يفعل، ولا ساحرا يخدع ويخيف وبذلك يؤثر على السذج ويجمع من حوله البسطاء وصغار العقول، ولا محترف بلاغة يدخل القلوب من طريق السليقة الأدبية التي فطر عليها جميع العرب، والعاطفة التي يهزها بيت من الشعر أو نغمة تردد.

ولو كان مُحَمَّد ﷺ كذلك– وحاشاه أن يكون– لعد من شعراء عصره، ولدرسه طلاب المدارس والجامعات في كتب الأدب والنقد والحفظ والتسميع على أنه من الشعراء المجيدين في الجاهلية مثل زهير أو عنترة أو لبيد، من أصحاب المعلقات، ولما أمكن أن تقام دولة عربية تخلد على مدى الأزمان ولا أن يؤتى بقرآن يكون هو دستور الحضارة والعلم والنظام، ولما سمعنا بمن يسمى باسم مُحَمَّد ﷺ، ولما ظهرت هذه القواعد الدينية التي جرت في العرب اليوم مجرى الدم، والتي تحارب الجريمة والرذيلة وتدعو إلى الحق والخير والجمال والعبادات كالحج والصلاة والصوم والزكاة، ولما تكلما العربية، ولكان العالم اليوم غير الذي هو عليه الآن..

إنما هو دين وأخلاق ونظم معيشة جعلت كلها لصلاح الجنس عامة وهدايته والرفق بحياته هنا وبعد هذه الدار "ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" للمسلمين والمسيحيين والبوذيين وكلهم.

إنما هي نظم ديمقراطية يسير عليها الحاكم وفق حاجة وحالة رعيته ليصل بهم إلى طريق النجاة في خضم الحياة!

يقول المستشرق نللينو فيما ذكره "ت أرنولد" T. Arnold في كتابه The Caliphate الخلافة: "لقد أسس مُحَمَّد في وقت واحد دينا ودولة وكانت حدودها متطابقة طوال حياته".

ويقول الدكتور شاخت في الـ Encyclopaedia of Social Science أي دائرة معارف العلوم الاجتماعية: "على أن الإسلام يعني أكثر من دين: إنه يمثل أيضا نظريات قانونية وسياسية، وجملة القول أنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معا".

ويقول الأستاذ ستروسمان في Encyclopaedia of Islam "دائرة المعارف الإسلامية": "أن الإسلام ظاهرة دينية وسياسية إذ أن مؤسسه كان نبيا وكان سياسيا حكيما أو رجل دولة".

كذلك يقول الأستاذ و. ب. ماكدونالد في كتابه: "تطور النظرية الدينية الإسلامية": Development of Moslem Theology. "هنا–

أي في المدينة– تكونت الدولة الإسلامية الأولى ووضعت المبادئ الأساسية للقانون الإسلامي".

كما يقول السير توماس أرنولد في The Caliphate "الخلافة": "كان النبي في نفس الوقت رئيسا للدين ورئيسا للدولة".

ويقول المستشرق جب H.A.R. Jibb: "عندئذ صار واضحا أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين في الحكم وقوانينه وأنظمته الخاصة".

الآن، وقد أجمع هؤلاء الفقهاء والمؤرخون على أن حكومة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم كانت حكومة دينية وسياسية في آن، وهذا واضح من الواقع نفسه فإن مُحَمَّدا ﷺ كان هو الحاكم الفعلي في المدينة يجلس للحكم وللفصل في الخصومات ولوضع الأسس للأخلاق، ويؤم الناس للصلاة ويشرع ويقنن في تعاليم الدين وتبعا لما أنزل عليه من عند الله. فكان حاكما سياسيا بحكم توليه أمور المسلمين، وكان زعيما ونبيا بأن كان إماما وصاحب رسالة بلغته من السماء، وكانت كل أعماله وأحكامه وحلوله المعضلات الكبرى نابعة من الدين ومن التعاليم الجديدة التي غيرت وجه العالم كله، والتي لم يكن للعرب عهد بها من قبل يوم كانوا يغطون على سرير الجهل، ويهيمون في بوادي الفوضى والهمجية. وكانت تلك التعاليم استحداثا من عند الله لهداية الناس، وخلق مجتمع جديد متحرر من الخوف والعوز يضيء بصيرته نور المعرفة: معرفة الله ومعرفة السبيل إليه ومعرفة

نظم العيش، حتى يجمع بين دنياه وآخرته.. إنه مجتمع سليم من العادات المستهجنة والآفات المرذولة التي انحدرت إليه من أصلاب أجداده وكادت تودي بالجزيرة العربية كلها وتهوي بها إلى حضيض.

لكننا ابتعدنا في كلامنا الآن عن لفظة "ديمقراطية" التي قصدنا إليها من وضع هذا الكتاب بعينه، ولكن لا بأس فذكر النظام والصلاح في الدنيا والآخرة – قائمين أو نابعين من نظم الحكم التي جاء بها الإسلام – إنما هو توكيد لما ذهبنا إليه وذكر ضد الشيء يقويه ويجليه ويبرزه غير خاف ولا غامض، وبضدها تتميز الأشياء.

ثم نعود فنقول أن الحكم السياسي ألوان، منها الحكم الأوتوقراطي، وقد ذكرنا طرفا منه عند حديثنا عن أسرة تيودور، والأرستقراطي والديماجوجي والديمقراطي.

فهل كان حكم مُحَمَّد ﷺ في الجزيرة العربية حكما ديمقراطيا مادام قد خلا من مجلس نيابي وحزب معارض يجلس ناحية اليسار، وصحافة حرة وصناديق انتخاب وتذاكر، ولجنة مندوبين للمرشحين؟.

نعم لم يكن ثمة "فرز أصوات" ولا برلمان منتخب ولا حزب يساري، ولم تعرف الصحف لعهد النبي، إنما كان ما يكتب من الآيات والعهود يكتب على العسب واللخاف وأكتاف الحيوان. لكن حكم مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم مع ذلك كان حكما ديمقراطيا في روحه وتطبيقه بمعنى أنه كان

حكما يقوم به أناس نبتوا من وسط الشعب، ويعملون لصالح الشعب والشعب عنهم راض.

ولكن – مرة أخرى– كيف السبيل إلى إثبات أن الشعب في مكة والمدينة وما حولهما كان راضيا حين ذاك عن حكم مُحَمَّد ﷺ؟ كذلك في بقية البقاع الأخرى؟

يكفي أن نثبت حقيقة أن الشعب العربي اعتنق الإسلام الذي جاء به مُحَمَّد ﷺ وتزعمه وقام على تطبيقه، يكفي هذا دليلا وشاهد صدق على رضاء الشعب عنه وعن حكمه، فقد اعتنق العرب الدين الجديد بلا ضغط ولا إكراه، ويكفي تقديرهم وتفهمهم لما جاء به القرآن من أحكام تضمن لهم زاد المعاش والمعاد، وترد لهم كرامتهم المهدرة وتفيقهم من الغفوة التي كانوا فيها يغطون في الذل وهم لا يشعرون.

فلقد جاء الدين الجديد لنشر العدل وتحرير العبد ولرفع الظلم ودفع الغبن ومحاربة الموبقات، فالناس أحرار وليسوا عبيدا إلا للذي "خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها"، وهكذا رضي الشعب عن النظام الجديد لأنه أفاد منه حرية ونورا، وكفالة لرزقه. ومن ذا الذي لا يرضى عن حكم هذا مبدؤه، وهذه أصوله والقرآن دستوره! وهذا هو المعيار الأول لرضاء الناس عن الحاكم، وماذا يطلب المحكوم من الحاكم غير الحرية والأمن والطمأنينة وتكافؤ الفرص؟! وهل جاء الإسلام لغير هذا!

ولكن – مرة ثالثة – إن هناك نقطة أخرى وهي تلك التي أشار إليها أولئك الفلاسفة والمشرعون الذين ذكرناهم آنفا وهي أن حكم مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم كان نصفه دينيا ونصفه سياسيا – ديمقراطيا – فيكون حكم مُحَمَّد ﷺ نصف ديمقراطي فيخرج عن موضوعنا في هذا الكتاب؟... لا...

ما موقف الديمقراطية التي أثبتنا في السطور الماضية أنها كانت هي مظهر الحكم الفعال في شبه الجزيرة العربية أيام النبي.. ما موقفها من الدين؟

وهل كان نظام الحكم الديني مناقضا في جوهره للحكم الديمقراطي أو مقللا من فاعليته التي تستتبع أن نطلق عليه لفظة "الحكم الديمقراطي"؟

الواقع أنه ليس هناك فارق بين الدين والديمقراطية من ناحية التطبيق العملي، ومن ناحية الهدف إطلاقا؛ فليس هناك دين لا يرمي إلى سعادة الجنس البشري ويتوخى مصالح الشعب، والشعب الذي يدين بدين ما يرضى عنه كما يرضى عن الحكم الديمقراطي. فالدين يستهدف سعادة البشر، والحكم الديمقراطي يستهدف سعادة البشر. إذن "الدين" يساوي "الديمقراطية" بقضية منطقية أو معادلة حسابية.

إذن.. لا فرق؛ فالحكم الديني إذن حكم ديمقراطي، لأنه ما من شيء أتى به الدين إلا كان لمصلحة الشعب، والشعب يرضاه لأنه اعتنقه "وما أردنا ظلما بالعباد" ثم "ومَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ". والشعب العربي الذي آمن

بمحمد ﷺ وأسلم للدين قياده وصدق بما جاء به مُحَمَّد من عند الله قد رضي عن مُحَمَّد وعن حكمه الصالح. فالدين – إذن– دعامة الديمقراطية وسندها، لأن الدين جاء فعلا بالمبادئ الديمقراطية وأمر بها: "وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ"، "وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ".

ومُحَمَّد ﷺ الحاكم كان يعارض من المسلمين، وقد عورض فعلا في صلح الحديبية، وفي مشكلة أسرى بدر، وفي الصلاة على عبد الله بن أبي (رأس المنافقين) وفي مواضع أخرى كثيرة، منها إنفاذ غزوة مؤتة بقيادة ابنه بالتبني زيد بن حارثة.

عارضه عمر في كل هذا تقريبا بل لقد أخذ بحجزته، واستعمل معه أساليب العنف ليحول بينه وبين الصلاة على المنافق الكبير، وهذا الفعل في ذاته تكريم للنبي من عمر التلميذ، وترفيع له من الصحابي الجليل عن أن يكرم منافقا بعد موته كان في حياته يؤذي المسلمين بذبذبته ونفاقه. ثم جاء القرآن مؤيدا رأي عمر في هذه الحادثة بعينها، وفي مسألة أسرى بدر.. وأي معارضة خير من هذه وإن لم يكن معارضة منظمة بحزب اسمه "حزب المعارضة" بلا كراسي ولا مدرجات ولا مائدة طويلة تجعل ناحية اليسار..

ثم أن مُحَمَّدا ﷺ الديمقراطي العظيم قال للناس العاديين– للشعب– "إنما أنا مثلكم". وقال للناس العاديين أيضا– للشعب "سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً؟" بناء على تعليمات ربه القدير.

ونفى مُحَمَّد ﷺ عن نفسه القدسية بذلك، وأمر أصحابه ألا يطروه كما أطرت النصارى المسيح عيسى بن مريم، ونهى في أكثر من موضع عن تشبيهه بملوك الأعاجم، لأنه ديمقراطي لا يعرف الكبر سبيلا إلى قلبه، وكان مجردا من القدسية، جرد هو نفسه منها حتى لا يكون في أعماله أي مظهر إلهي يبرئه من الخطأ، بمعنى أن الحكم الديمقراطي لعهد النبي كان نابعا من الدين ويرتكز عليه، والدين يؤيده ويدعمه، لكن أعمال النبي كانت تبتعد عن القدسية.

فكان حكم مُحَمَّد – إذن – حكما ديمقراطيا لصالح الشعب برجل من الشعب، وكان استشاريا تسنده معارضة قوية من أناس – صحابة علماء حكماء – يمثلون الشعب بحكم مركزهم الديني والاجتماعي، وقد أيد الله تلك المعارضة في مواضع كثيرة في القرآن في تفضيل رأي عمر وبعض الصحابة في مسألة أسرى بدر مثلا وإن لم تكن المعارضة منظمة في مجلس نيابي وبكراسي ومقاعد تجعل ناحية اليسار.

محمد صلى الله عليه وسلم وحق الملوك الإلهي:

لم يكن مُحَمَّد ﷺ – إذن– يعتقد أنه منزه ويقتعد مكانا قدسيا بمعنى أنه لم يكن يدعي لنفسه حق الملوك الإلهي: The Divine Right of Kings.، ويزعم أن قراراته كانت قانونا سماويا لا يقبل النقض وهو الذي قال: "إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد".

والذي هو بشر كما وصفه ربه، وكلفه بأن يقولها للناس ليضع الخاتم على وثيقة بشريته.. "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ".

نعم لم يكن مُحَمَّد ﷺ يدعي لنفسه هذا الحق كما كانت الحال في الدول الأخرى لذلك العهد كفارس ورومية، وحتى لو قالها أو نسبها لنفسه لما تعارض هذا وديمقراطيته لأن حكومة مُحَمَّد ﷺ كانت حكومة ديمقراطية ثيوقراطية تصدر في أحكامها كلها عن كتاب الله بل أن سنة الرسول وأحاديثه ترديد لهذه الآيات المحكمات فهذه التعاليم كلها تأمر بالشورى وتنهي عن تحكم الفرد..

وبذلك حكم مُحَمَّد ﷺ منفذا لتعاليم ربه التي نيط هو بتنفيذها بحذافيرها، واختير هو لذلك لصدقه وأمانته، واليقين الذي يعمل به، وعلو همته وقوة عزيمته مما يجعله أهلا للبلاغ، بل لقد عاش عيشة الرجل العربي العادي ولم يحط نفسه بأي مظهر من مظاهر الترف والأبهة التي كان يتمتع بها القياصرة والأكاسرة من حكام عصره. ولو أنه قال أنه مفوض من قبل الله ليحكم، لما جاوز الواقع أو الخلق ما دام لن يستغل هذه الصفة لنفع دنيوي أو مأرب شخصي، استنادا على أنه مقدس لا تجوز معارضته..

فكان يأبى أي مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية. كان يقول لأصحابه "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله"[٤].

"فقد خرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا، فقاموا له فقال لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا. وكان إذا بلغ في مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويلاعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر، ويبدأ من لقيه بالسلام.. وكان في بيته في مهنة أهله، يطهر ثوبه ويرقعه، ويحلب شاته ويخصف نعله، ويخدم نفسه ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم ويقضي حاجة الضعيف والبائس والمسكين، وكان إذا رأى أحدا في حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة. وكان لذلك لا يدخر شيئا لغده، حتى لقد توفي ودرعه مرهونة عند يهودي في قوت عياله وكان جم التواضع شديد الوفاء"[٥].

كانت هذه هي طباع النبي وأخلاقه وعاداته: تواضع، رحمة، عدل، زهد، عمل، رقة، مساواة، شفقة، "اتيكيت"، تعاون، إيثار، اتكال، إخلاص. وأي حاكم هذا الذي يلبس أهداما وملك يمينه كل ما أصاب من الغنائم والفيء!!

---

(٤) من كتاب حياة محمد للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل.

(٥) من كتاب حياة محمد للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل.

إنها قوة أخلاق، فكل من هذه الصفات لها أكثر من شاهد ودليل على أن مُحَمَّدا قد جمع الفضل من أطرافه، وكل ما ورد في هذا النص من عبارات يتضافر ليبين عن أعظم صفات مُحَمَّد التي نحن بصددها وهي التواضع الديمقراطي الذي كان أول الصفات النافية لقدسية الحاكم.

والذي يفعل هذا لا يمكن إلا أن يكون قد بلغ من الديمقراطية أوجها ومحال أن ينتحل لنفسه صفة القدسية، والذي تكون هذه صفاته لا يمكن أن يظلم مقدار حبة من خردل، لأنه قوي الخلق يقظ عطوف شفيق يداعب صبيان العرب ويجلسهم في حجره، وحب الأطفال مظاهر السماحة وعنوان القلب الكبير الرطب، الذي لا يعرف إلا الحب "ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين"[٦].

لأنه ديمقراطي.. ألا فليشهد التاريخ.. فإن هذا امتزاج الحاكم بالرعية حتى يلمس أحوال الناس عن كثب ويعرف كيف يعيشون وكيف ينامون وماذا يأكلون، ويحس آلامهم وآمالهم فيمسح بيده الكريمة دموع الأرامل والثكالى اللواتي فقدن أزواجهن أو فلذات أكبادهن في حومة الوغى ويربت بيده الحانية على ظهور اليتامى فتطمئن النفوس الجازعة وتنسى لواعج الهجران، وذل الحرمان.

والإيثار على النفس قوة خلق من حاكم مفروض فيه الانفراد بالكثير من أطايب الدنيا ولذائذ الحياة.. حبا وكرامة يا خير من أقلته الأرض!..

---

(٦) من كتاب حياة مُحَمَّد للمرحوم الدكتور مُحَمَّد حسين هيكل.

وكان ينام على حصير تترك أثرها في جنبه وهو الذي كان ينثر الفيء والغنائم على المسلمين بغير حساب وهو الذي قال بلسانه الطاهر: "إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد". بلا سماط ولا موائد ولا متنوعات تضم ما لذ وطاب من أفانين الطعام..

حقا كم كان معرضا عن الدنيا!! وكان كريما وكان بشرا وكان بسيطا في غير سذاجة لكنها بساطة العظيم في غير كلفة ولا تظاهر. حقا كم كان قدوة وعزاءً للفقراء!

بهذا كله كان مُحَمَّد ﷺ أبعد ما يكون عن حق الملوك الإلهي، لأن حق الملوك الإلهي معناه اعتزال الناس والبعد عنهم، والتعالي عليهم والنظر إليهم من حالق..

قلنا: أن من الجائز الجمع بين حياة البساطة وحق الملوك الإلهي باعتبار أن مُحَمَّدا ﷺ كان حاكما سياسيا، وزعيما دينيا مبلغ رسالة باعتبار أن حكومته كانت حكومة ديمقراطية ثيوقراطية، ولكن هناك نقطة معينة أشار إليها العقاد في كتابه "الديمقراطية في الإسلام".

قال العقاد: "وكان النبي ﷺ ينكر على الوالي أن ينتحل لنفسه ذمة الله ويقول لمن ولاه الله أمرا: (إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله ورسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم

على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله لكن أنزلهم على حكمك، فأنت لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا)". انتهى الحديث..

فهل كان مُحَمَّد في هذه الوصايا يربأ بنفسه عن أن يتحمل أخطاء دنيوية نظرا لأنه صاحب رسالة ومبلغ وحي؟.. كلا.. إن الواقع عكس ذلك تماما فإن مجرد نسبة العهد أو الذمة إلى اسمه وشخصه هو تقديس لا يرضاه هو بل يأباه وينهى عنه، لأن القائد أو الوالي الذي يجعل للناس ذمة الرسول إنما يريد أن يقوي عمله ويدعمه بالقدسية التي ينسبها إلى النبي، وهو ما كان الرسول يتأفف منه، وكان يتنافى تماما مع أقواله وأفعاله ونظام حياته، وهو ما سبق أن كررناه مرارا في السطور السابقة فيما نقله الدكتور هيكل في كتابه "حياة مُحَمَّد".

ويريد ﷺ من ناحية أخرى ألا يقحم اسم الله تعالى المنزه عن الخطأ في أمر من أمور الدنيا يجوز فيه الصواب والخطأ. أما هو نفسه صلى الله عليه وسلم فحاله غير هذا كما سبق القول، بل يريد أن يتحمل العامل مسئولية عمله، ويتصرف بوحي من ضميره ودينه واستعداده الشخصي قائدا كان أو غير قائد، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه آنفا عن مسئولية الفرد..

وقوله عليه السلام في هذه الوصية بعينها "أو يخفروا ذممكم" خير مصداق على أن الرسول ﷺ يربأ بنفسه عن أن يعرضها لوزر غيرها وعن أن يتحمل مسئولية غيره بعدا بها عن أن تقحم في أخطاء الغير، وهذا احترام لشخصية الفرد، وفتح لباب الاجتهاد، بل والابتكار وهذه العبارة

بعينها أيضا هي صمام الأمن، لما عساه أن يتبادر إلى الذهن من الرفع إنما هي أدخل في باب المسئولية كما ذكرنا. والرسول يريد هنا أيضا أن تشمل الديمقراطية الولاة والقادة كذلك حتى تكون المسئولية أعم، وتقسم على الناس بحسب أخطارهم وأهمية العمل الذي يقوم به كل منهم وبحسب وظائفهم في الدولة. وبذلك وبكل ذلك نفى الرسول عن نفسه حق الملوك الإلهي..

وعلى هذا الهدي الكريم سار أصحابه وتلامذته من بعده في حكم الجزيرة العربية وحكم الأقاليم، ومن ذلك أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يشمئز من أن يقال أن حكمه أو رأيه مشيئة من مشيئات الله وهو – عمر – الحكيم المجرب العالم المؤمن المفكر الحريص في كل عمله وقوله على أن يصدر عن الله وبما يرضى الله ورسوله؛ فلقد انتهر بعض جلسائه لأنه زعم ذلك لعمر، فقال عمر: "بئس الذي قلت! هذا رأي عمر إن كان صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمن عمر.. لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة"..

ذكره العقاد أيضا، وهو لا يخرج عن الوصاية الآنفة التي وردت عن النبي. تشريع ومسئولية وإيمان وتواضع.. بهذا كان النبي وأصحابه يحكمون بالديمقراطية السمحة.. بلا ادعاء أو تظاهر.. بلا قدسية ولا إلهية.. بلا عتو ولا علو.. "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ"، "ولا تُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ!".. صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم..

دعنا نعود إلى حديث الملوك وحق الملوك الإلهي وما جره هذا الحق على العالم من ويلات ومصائب تجل عن الوصف في الماضي والحاضر على حد سواء؛ فهذا القيصر نيقولا الثاني قيصر روسيا الذي أعدمه وأسرته السوفييت عام ١٩١٨ كان إذا استحل أرضا أو حلت في عينه ضيعة ضمها إلى أملاكه الخاصة ولم يكن لمالك أن يعترض، أو يرسل إلى سيبيريا ليعاني آلام الجوع والزمهرير وسوء المعاملة في الصحاري الجليدية الشاسعة الأطراف في شمالي آسيا حتى يقضي نحبه..

وكان لويس السادس عشر ملك فرنسا الأسبق الذي أعدمه الفرنسيون هو الآخر يتمتع بحق الملوك الإلهي، وقد بلغ الإقطاع في عهده ذروته وعلا الظلم علوا كبيرا، فكان الإقطاعي يبيع الأرض ومن عليها من الفلاحين بيع السائمة.. ومن قبله كان سلفه المجرم لويس الرابع عشر يردد في كل مناسبة وبغير مناسبة عبارته المشهورة "أنا الدولة" L'Etat, c'est à moi.

والأدهى من ذلك والأمر بما يدخل في هذا الباب ما كان يفعله عبد الحميد خان الثاني سلطان تركيا الملقب – رياءً – بأمير المؤمنين والذي كان جبارا في الأرض وكان متألها، وكان يمتلك ألف مليون جنيها، والفقر ضارب أطنابه في جميع أنحاء السلطنة..

وقد قرأت أن أحد سلاطين تركيا جعل ستين جارية ممن تقدمن قليلا في السن جعلهن في غرائر وألقى بهن في المضايق تخلصا منهن لأنهن لم يعدن في جمال الورد متعة لهذا الفاسق الضليل..

أما فاروق فكان أشبه "بقارون" وما أشبه الاسم بالاسم والإثم بالإثم.. كان لهذا الطاغية ثمانون ألف فدانا، وعشرون مليونا من الفلاحين ينخر أبدانهم المرض من الفقر وسوء التغذية وهم يتضورون من الطوي ويتمنون مصاصة النوى، وكان ذلك الوغد يتحكم في شعبه كيف يشاء، وكان يولي الشعب أناسا عرفوا بالبطش والجبروت، ولم يجرؤ أحد أن يحد من طغيانه إلى أن أطارته الأيام عن عرشه الهزيل. لقد كان كلمة قالها شيطان ثم ماتت على شفتيه يوم ٢٣ من يوليه عام ١٩٥٢.

إذ خلفه أبناء الشعب وقد نبتوا من بين الشعب ليحكموه باسم الشعب، يسهرون على راحته ويصلون الليل بالنهار من أجل عزته بعد أن أزاحوا عن صدره صخرة الاستعمار، فحرروا الفلاح من ربقة الذل وفكوا أغلاله وملكوه الأرض التي كان بعدا فيها، وأقاموا دولة جديدة عزيزة الجانب تبشر بالعدل وتنشر السلام وتتزعم الحرية وتسعى لإزالة البغضاء والحقد من على وجه الأرض، وتحارب مجرد الدعوة إلى الحرب وتتزعم وتغذي كل حركة تحريرية تهدف إلى نفض الاستعمار فكانت هزة مؤمنة حقا..

ولقد استبان للناس كم كان الخالق نفسه يمقت نظام الحكم الملكي ويندد به وقد وضح ذلك من قوله تعالى: "وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا"، فوصف الملك باللصوصية والغصب والقرصنة في أعالي البحار، وفي قوله عز من قائل: "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ".

ولهذا كان مُحَمَّد ﷺ ينهى العرب عن أن يشبهوه بالأكاسرة والقياصرة وحرم عليهم أن يحيطوه بهالة من القدسية، وأن ينسبوا أعماله إلى الله، لأنه بشر بحكم ربه، يجوز عليه الخطأ والصواب، ثم أنه كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويقضي نحبه ويذهب إلى ربه كما يذهب كل أنسي بشر وهو هو كما قال عن نفسه: "ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد".

أفبعد هذا تكون الديمقراطية الحقة، والألفة بين الحاكم والرعية!؟

أبى أن يقيم ستارا حديديا بينه وبين شعبه حتى يستطيعوا أن يلمسوا منه رحمة الأب وعدالة القاضي وقرب الحاكم فيطمئنوا إلى أنهم في رعاية ذلك الحكم الشعبي الذي أقامه مُحَمَّد (ﷺ) في شبه الجزيرة العربية بعد سنين طويلة من الذل والعبودية والفقر والتخلف، على أساس من المساواة والحكم الصالح الذي هو في خدمة الشعب؛ فكانت حكومة ديمقراطية روحا وتطبيقا بعيدا ذلك عن صناديق الانتخاب والمجالس النيابية التي قد تقوم على الزيف لتخدم طائفة من الإقطاعيين والرأسماليين أعداء الشعب..

عدل. كفاية. يقظة ساهرة. ورحمة وتضحية وفداء وروحانية تؤيد الواقع العملي وتسنده وتزكيه، وتطهره وتنميه، وفوق كل هذا الإيمان بالله والإيمان بمقدرة الفرد على أن يفعل الكثير من أجل نفسه ومن أجل المجموع الذي يعيش به وله حتى انتظمت الأحوال، وكونت الدولة الجديدة وحق للشعب العربي أن يصفه ربه بقوله: "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ".

الفصل الثاني

ديمقراطية التواضع

ولست بملك:

كان مُحَمَّد ﷺ في تواضعه المثال والقدوة للناس كافة حكاما ومحكومين؛ فإن أخص ما كان يمتاز به هذا الكريم الطاهر من شمائل هو التواضع، فما كان قط ليميز نفسه عن العربي العادي، وما كان ليتعالى على رفقائه في الجهاد برغم المكانة الدينية والدنيوية التي كان يتمتع بها، وما كان في حياته كلها إلا عنوان البساطة في المظهر والعمل برغم أن عرض عليه ربه أن يجرى بطحاء مكة بين يديه ذهبا..

وكان يستنكف من أن يعظمه قومه كما كانت تعظم الأعاجم ملوكها وكان يكرر هذه العبارة دواما "لا تعظموني كما تعظم الأعاجم ملوكها" ما بدر من أحد من العرب ما يشير إلى ترفيعه وتقريبه أو تشبيهه بالملوك.

حدثتنا أم المؤمنين "عائشة" التي كانت هي الناطقة بلسانه والراوية عنه بأمر منه، حدثتنا فروت لنا أمثلة عدة لهذه الخصلة التي ترفع الحجاب بينه وبين العرب وتحببه إليهم باعتباره راعيهم الحريص عليهم الرحيم بهم رحمة الأب الحاني. منها قولها: "أنه ﷺ كان يجتزئ من الفراش بما تدعو إليه الضرورة" كما قالت في موضع آخر وفي نفس المعنى، معنى التواضع والبعد

عن الإيثار قالت: "إنما كان فراش رسول الله الذي ينام عليه أدما حشوه ليف". رواه الشيخان، والأدم هو الجلد.

فلم يفترش حشايا من الريش الفاخر، ولم يتخذ الحرير يخب فيه خبا، ولم يحل صدره بحلية من ذهب أو بالقصب يوشي ثيابه، ولم يكلل رأسه بتاج مرصع بالدر والجوهر، ولم يمش بين يديه الياوران، كما كان يفعل ملوك فارس وررومية..

ولو أراد لفعل، لكنه لم يفعل لأنه صاحب رسالة، ولأنه جاء من أجل العبيد والأرقاء والمعذبين في الأرض يرد لهم اعتبارهم ويخفف من ويلاتهم، ولأن الفخفخة وأبهة الحياة التي يتقلب فيها الحاكم إنما تكون على حساب قوت الشعب. بل لقد أبى أن يعيش في أبهة وثراء يأتيانه من ربه الذي عرضهما عليه عرضا دون أن ينقص ذلك من أموال الفقراء..

ولقد جاءه الفيء يزف إليه زفيفا، ففرقه على الصحابة والمسلمين وهو أولى به تعويضا له عما يلاقي من الهوان، لأنه أول المعذبين وأول المضطهدين، ولأنه هو المقصود من الكفار بالاستئصال، لأن في القضاء عليه القضاء المبرم على دعوته التي لم يقبلوها، وقاموا يناصبونها العداء هي وصاحبها، ولقد عاش عيشة العربي العادي حتى لقد كان يجوع نفسه لتشبع أمته.

ولنأت مرة أخرى بشاهد آخر على العذاب الذي أخذ به نفسه عليه صلوات الله عليه.

روى ابن ماجة عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: "دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير فجلست فإذا عليه أزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا بقبضة من الشعير وهو نحو الصاع، وإذا أهاب معلق فابتدرت عيناي فقال: "ما يبكيك يا بن الخطاب؟" فقلت: يا نبي الله ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزائنه! قال: "يا بن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟!".

بمثل هذه السماحة وهذا الشظف عاش مُحَمَّد الديمقراطي الكبير، وكان العربي العادي يحيا حياة أروح من هذه، ولو شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذ لنفسه من الفيء ولو شيئا يقيه هذه المشقة ويجنبه هذا العذاب!.

وإليك أيها القارئ مثلا من نوع آخر على ديمقراطية الرسول في معاملة رعاياه، وهي حكاية إن دلت على شيء فإنما تدل على أن مُحَمَّدا ﷺ الذي قال بلسانه الطاهر "كلكم لآدم وآدم من تراب".. لم يقلها للناس جزافا، لم يقلها ليطبقها عليهم دونه، وإنما وجهها لنفسه أيضا وعمل بما تقتضيه من التواضع ليتخذها سبيل هداية، وليجعلها في التطبيق العملي سنة يستنها خلفاؤه من بعده.

نعم.. لم تكن عبارة نظرية ولا عظة دينية أو شعارا يتحايل به المرء يتخذه ستارا يخفي وراءه حياة من الدعة ورفاهة العيش كما قال بعض المتعصبين من كتاب الغرب، وإنما قرن العظة بالتطبيق لئلا يكون لدعي أو مدع حجة في القول بأن رسول الله كان يقول ما لا يفعل أو أنه يقسم الناس إلى سادة وعبيد أو أنه سكت عن حالة فوضى الطبقات التي كانت سائدة في الجاهلية – وكانت سمة العهد المميزة عندما بعث بالحق – بل لقد كان جادا كل الجد عادلا، وكان أول ما يعدل يعدل على نفسه وبيته وبيئته وبين أهله..

قال أبو هريرة: "دخلت السوق مع رسول الله لنشتري سراويل، فوثب البائع إلى يدي النبي ﷺ ليقبلها، فجذب يده ومنعه قائلا له: "هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم". ثم أخذ السراويل فأردت أن أحملها فأبى وقال: "صاحب الشيء أحق بأن يحمله".

بخ! بخ! "إنما أنا رجل منكم"!. هل قالها كسرى أو قيصر لأي من شعبه؟ حتى لو قالها هذا أو ذاك لكان مرائيا، لأن واقع حياته الفاخرة يناقض هذا.

إن في هذه الحادثة على صغرها عبرا وعظات عدة وإنها لتشخص دليلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، على أن ليس ثمة حجاب بين الراعي والرعية الإمام والمأموم الحاكم والمحكوم، ذهب مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى السوق ليشتري لوازمه وحاجاته ولم يرسل خادما

يقوم عنه بهذا العمل وهو حاكم ورئيس دولة، لم يرسل أبا هريرة مثلا الذي صاحبه إلى السوق. ولم يرسل إلى التاجر ليأتي إلى داره ويأخذ منه النبي ما يوافق مقاسه، وكان من مستطاعه ذلك لو أراد بمجرد إيماءة من يده..

ثم أن النبي عليه السلام أنكر على البائع تقبيل يده، وهو يعلم علم اليقين أن تقبيل يده هو – وهي اليد التي أخذت بيد العرب إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة – شرف لا يطال. وما فعل مُحَمَّد ﷺ ذاك إلا لأن مثل هذا التقبيل يقرب مُحَمَّدا من الرفعة وأبهة الملك التي تشبهه بملوك ذلك العهد وهو لا يريد هذا وقد نفاه مرات.. وثالثا أنه أنكر على نفسه مجرد كونه حاكما وسوى نفسه بالرعية بقوله: "إنما أنا رجل منكم".

وعاد عليه السلام يكرر عبارته التقليدية: "ما تفعله الأعاجم بملوكها" فهو إذن حريص الحرص كله على ألا يشبه بالأعاجم في الجاه والسلطان أو في أي مظهر لا يسوي بينه وبين سواد العرب.. أفبعد هذا تكون الديمقراطية؟! إن كان في الناس مثلها فأروني!

إن مُحَمَّدا ﷺ أعظم قدرا وأهم خطرا من ذلك البائع العادي، لا ريب في ذلك، لكنه أراد أن يضرب المثل لذلك الرجل وللناس أن لا فرق بين حاكم ومحكوم وأن الحاكم في خدمة الشعب..

ثم ماذا يكون شعور مثل ذلك الرجل وبقية العرب بعد شيوع هذه الحكاية؟. أفلا يستميتون في سبيل دعوة لم يرد بها إلا الحق وخير البشرية؟ أفلا يتهافتون على مرضاة الله وهذا نبيه المرسل وما جبل عليه من

السماحة وحسن المعاملة؟. أفلا يزهدون في الدنيا زهدا ويتعاشون على حومة الوغى استشهادا في سبيل تلك العقيدة السوية.

إنه الصبر!!.. الصبر على شظف العيش وهو ألزم اللزوميات للحياة الجديدة.. ثم.. "صاحب الشيء أحق بحمله"! إنه لا يريد أن يتعب الرجل فحسبه الصحبة وعناء الرحلة برغم أن أبا هريرة طلب ذلك إلى النبي عن طيب نفس وأنه كان يجد شرفا دونه أي شرف إذ يحمل شيئا لرسول الله وخاصة إذا كان ذلك الشيء سترا لبدنه الكريم!

إنه الأستاذ الأعظم– مُحَمَّد ﷺ– والمربي الفاضل وباعث الأمة من مرقدها ومنشئ الديمقراطية في جزيرة العرب..

حكاية أخرى مما لا يكاد يقع تحت حصر في هذا الاعتبار، فقد كان الرسول عليه السلام على سفر مع جماعة ذات يوم، فلما حان موعد الطعام عزموا على إعداد شاة يأكلونها فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الآخر: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليَّ طبخها؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "وعليّ جمع الخطب"؛ فقالوا: يا رسول الله.. نحن نكفيك العمل؛ فقال: "علمت أنكم تكفونني ولكنني أكره أن أتميز عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه". (رواه الزرقاني في "شرح المواهب" ٤/٢٦٥). وكم.. وكم!!

المفروض أن الزعيم والرئيس لا يشارك في خدمة، ولا يقوم بعمل من اختصاص الرجل العادي، وحسبه ما يكابده من فكر ممض في سبيل شعبه،

وما يعانيه من سهر طويل وانشغال دائم بشئون رعيته.. لكن مُحَمَّدا صلى الله عليه وسلم زعيم الديمقراطيين وضع لنا منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام مبدأ الاشتراكية الديمقراطية التعاونية التي نعيشها في حياتنا الجديدة حياة الأحرار..

ومن شواهد تواضعه عليه السلام ما ذكره المرحوم الدكتور مُحَمَّد حسين هيكل وسبقت الإشارة إليه: "ومنها أنه كان يجيب دعوة الحر والعبد".. ديمقراطية.. مساواة!. وأنه: "كان يعود المرضى في أقصى المدينة"، رحمة، رفق، حنان."وكان يبدأ الناس بالتحية" أدب، ذوق، أخلاق. "وكان أطيب الناس نفسا وأكثرهم تبسما".

والهشاشة ضرب من الأريحية التي تستميل القلوب الصلدة، قلوب شعب متفرق شتتت من أثر البيئة الصحراوية المتناثرة في موارد الزرق..

وأما ما هو أعظم من التواضع فإنه كان "يطهر ثوبه ويرقعه ويحلب شاته، ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعقل البعير". لأن هذه الشمائل الحلوة كانت مظهرا للعمل والنشاط والرحمة و"الديمقراطية"، وهي دلالة فقره الذي اختاره لنفسه لئلا يكون متميزا على أحد من العرب..

وبهذا كان يعيش خلفاؤه الراشدون ويعملون، ولن ننسى كيف كان عمر يطهو للمرأة لتطعم عيالها وهو يبكي إن لم يفعل خيرا – حياته – على حد تعبيره، ولن ننسى أبا بكر إذ يحلب بيده الكريمة الشاة للمرأة

فظنته ابنتها أجيرا فقال: "حالب الشاة يا أماه!" ثم تبين أن حالب الشاة إنما هو الخليفة نفسه أمير المؤمنين.

وهل ننسى يوم قام عمر الآخر– عمر بن عبد العزيز– يصلح ذبالة القنديل ليسطع نورها حتى إذا عارضه بعض صحابته قال: "قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر!".

أفلا يطمئن العربي إذن على حياته ومستقبله ورزقه وينام ملء جفونه مستريحا ناعم البال؟! فمن فوقه الرحمة والعدل والتواضع والسهر على راحته والباب المفتوح، باب الحاكم لكل طارق وكل ذي مظلمة وكل ذي حاجة ملهوف!!

وانتقل النبي إلى الرفيق الأعلى وهو مدين في قوت عياله، أما عياله فلهم الله من بعده!! ولو شاء لاستجاب لنداء ربه بالغنى والثراء حين عرض عليه تعالى أو يجري بطحاء مكة ذهبا بين يديه.. وقال عليه السلام مؤكدا مبدأ التواضع: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر". وقال أيضا: "إن أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون".. قيل: يا رسول الله ما المتفيهقون؟ قال: "المتكبرون"!

وهذا يؤيد الحديث السابق بل أنه ليظهرنا كذلك على علم النبي الواسع باللغة العربية وعلى تضلعه منها فقد جاء بكلمة غريبة لم تعرفها

العرب، ثم شرحها لهم عندما سألوه عنها وهم أئمة البلاغة وحفاظ اللغة وصدورهم معجم لمفرداتها!.

وأي تواضع وأية ديمقراطية أعظم من هذه؟ بل أن مجرد السهر على راحة الشعب ديمقراطية!. لأن المهمل شئون رعيته لا يكون إهماله إلا عن استعلاء واستخفاف بالشعب وانصراف إلى النفس دون الشعب ذاته، وأن الحاكم الذي على هذه الشاكلة ليس لشعبه فيه من نصيب! ولا غناء ولا جدوى، إنه فوق والناس ضئال وكأنهم النمال..

والاختلاط بالناس ومعاشرتهم ومحادثتهم وملاعبة أولادهم ديمقراطية، وقد حتمت الدعوة ذاتها وما تقتضيها من خطابة ووعظ وعقد ندوات واتصالات ومقابلات للوفود المختلفة التي تفد إلى مقر الرسول للإسلام أو لشرح الدين، فوق الاستعداد الفطري عند النبي ﷺ استوجبت اختلاطه بالناس جميعا السوقة منهم وذوي الأحساب على السواء..

وليس من شك في أن الحياء صنو التواضع وأصل من أصوله لكنه تواضع مفروض بالطبيعة الحيية لا بالرغبة ولا بالإرادة، ذلك لأن الحياء شيء غير إرادي؛ فكان عليه السلام لفرط حيائه وأدبه الجم يستحيي أن يرد أهل الخطأ الذين كانوا يدخلون بيته للطعام..

ولندع المرحوم الأستاذ عبد الوهاب حمودة مؤلف كتاب "الرسول في بيته" يروي لنا هذه الحكاية الطلية التي تظهرنا على العجب العجاب من أخلاق زعيم وحاكم تقتضي نظم الحكم أن يلقى الناس على شيء من

الشموس والإعراض والاستعلاء لأن الناس – وخاصة في العصر الحديث وفي كل عصر – يحتاجون إلى شيء من الخشونة حتى لا يطمع السفلة والأوغاد في الحاكم فيستهينوا به ويشبهوا أنفسهم به وربما تألبوا عليه فيختل النظام بما ينذر بشر قد لا تحمد عقباه..

ولقد كان شجاعا جريئا في الحق، أما في بيته فهو الكرم والتسامح ولين الجانب وعراقة المحتد.. كان حييا إلى حد الخجل الذي قد يضر بصاحبه..

قال المرحوم عبد الوهاب حمودة في كتابه "الرسول في بيته":

روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أنس قال: "لما تزوج النبي ﷺ زينب أم المؤمنين دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، وقام من القوم من قام، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس فرجع. ثم أنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه فأنزل الله آية الحجاب وهي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ولَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا ولا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ واللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ وإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وقُلُوبِهِنَّ ومَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ولا أَن تَنكِحُوا

أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا)". (انتهى كلام أنس والآية هي الآية ٥٣ من سورة الأحزاب).

هل كان هؤلاء يريدون شرا بنساء مُحَمَّد ﷺ؟ هل كانوا "دبابير" بالمعنى المتعارف عليه عندنا نحن جيل القرن العشرين؟. ربما.. وربما لا!. كانوا مسلمين وكانوا من أتباع مُحَمَّد ﷺ فلا كرم الصحبة ولا الوفاء للزعيم والأب الروحي كان يسمح لهم بهذا..

هذا ما أرجحه؛ فالمسألة عندي مسألة "استلطاف" ورغبة في الحديث الطلي، والاستمتاع بصوت النساء. والرجال سماعون لصوت النساء أكثر مما هم سماعون لصوت الرجال، والعكس صحيح فالمرأة تميل إلى صوت المرء.

أو لعل هؤلاء النفر الثلاثة وهم من الأجلاف الذين لم تصقلهم حضارة كانوا بلداء الحس لم يفطنوا إلى أن ذلك كان يؤذي النبي، فرسخوا قاعدين وكانوا يتعاشون على بيوت النبي بلا تورع ولا ذوق.. وبيت القصيد عندنا في هذا المقام هو أن النبي ﷺ لم يزجرهم لأنه حيي خجول، ولأنهم ضيوفه وبين جدرانه بيته ولا يمكن صدهم أو ردهم ولو بطريق غير مباشر، لكيلا تخدش كرامتهم، وتحمل النبي ﷺ هذا الموقف بالصبر الجميل وترك المسألة لله المطلع على خفايا القلوب وخبايا الصدور يديرها عز وجل بما يراه فلم يقع – لا سمح الله – شيء تأباه الكرامة لأن الله تعالى صائن عرضه حتما، وسيحجز الشر قبل أن يقع. ولكني أحب أن أستدرك هنا ما

عساه أن يقر في الذهن من معنى خطير ذلك بأن الرسول ﷺ كان على بينة من أن زوجاته من الحصانة وقوة الأخلاق بحيث لا يمكن أن يملن إلى أمثال هؤلاء لو حدث لا سمح الله أن أرادوا شرا!.

وهناك حكمة بالغة من نزول تلك الآية، فهي تضع لنا منذ ألف وأربعمائة سنة مبدأ من مبادئ "الإتيكيت" العصري وهو الاحتراز عند مخاطبة النساء وتوخي الذوق ومراعاة شعور الزوج، وعدم تجاوز الحد المتعارف عليه عندما تضطر ظروف الحياة المرأة إلى أن تختلط بالرجل في عمل رسمي أو نظام من نظم المعيشة.. وقد كان هذا الحفل حفل زواج والناس مدعوون إليه فلا يجوز استغلال طيبة الداعي إلى هذا الحد البارد.. ثم أن الآية الكريمة فوق كل شيء آية عامة تضع مبدأ عاما، مبدأ الحجاب ولذلك سميت بآية الحجاب. لكنه التواضع والديمقراطية التي ابتكرت هذا الوضع وخلقت بذلك مبدأ من مبادئ التشريع الإسلامي..

الدعابة:

والدعابة ضرب من التواضع، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا، بمعنى أن مزاحه لم يكن ليخرج أبدا عن مبدأ الصدق الذي هو ثقة وأمانة وهو ألزم اللزوميات لحياتنا لأن الصدق والغش لا يمكن أن يتفقا وهما على طرفي نقيض، وإذا دخل على حياة الأفراد أو الأمم غش فقل عليهم العفاء؛ فالرسول لم يكن في مزاحه يقول شيئا غير الواقع على سبيل المزاح كما يفعل البعض في أيامنا هذه في "كذبة أبريل" إلى حد أن

منهم من ينشر نعيا في الصحف في شخص معين يزعم أنه مات وتقع كوارث بسبب ذلك. وقد حدث أن مات فعلا رجل غما ووهما بعد أن قرأ نبأ نعيه في صحيفة يومية كبرى، فقد أثر الخبر على أعصاب المسكين فذهب إلى حتفه ضحية الهذر الفارغ.

كان النبي ﷺ لفرط تواضعه وسماحته يمازح الناس بالنكات اللطيفة والطرافات الخفيفة، التي تدخل البهجة والسرور عليهم، وعلى عائلاتهم طلبا لمودة الشعب وأريحية من النبي لمن ولاه الله عليهم، وهو الحاكم الذي من شأنه أن يعيش في ذلك الوقت في برج عاجي كما كان يفعل ملوك فارس، ورومية، لأن ذلك كان هو سمة العصر..

ذات يوم جاءته عجوز تطلب إليه أن يدعو الله لها بدخول الجنة. فقال لها: أو ما علمت أن الجنة لا تدخلها عجوز!؟. فانطلقت تبكي فقال: ردوها. أما قرأت قوله تعالى: "إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا؟!". فسرى عنها.

وجاءته أخرى من الأنصار تشكو إليه زوجها فقال: "أزوجك الذي في عينيه بياض؟". فجزعت إذ ظننت أن بعينيه عيبا لم تطلع عليه، فأفهمها أن لكل إنسان في عينيه بياضا حول المقلة.. فسرى عنها.

بهذه الروح الديمقراطية العالية كان يعيش مُحَمَّد، وكان يعامل المسلمين كلهم، وبها كان طيبا محبوبا سريعا طاعته، لأنه ألف ودود ومحب للناس مسماح كريم.. والذي يحب الناس لا بد أن يحبه الناس إلا أن يكون به

عيب ينفرهم منه، وما كان مُحَمَّد على هذه الشاكلة، لقد كان كاملا من كل شيء. وسامة وخفة روح، وطهارة قلب، ونظافة بدن؛ فاستولى على القلوب، قلوب الصغار قبل الكبار.. ولهذا كله آمن الناس، لأن الناس لا تؤمن لفظ غليظ القلب.. "ولَوْ كُنتَ فَظًا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ".. وحاشا لمحمد أن يكون ذلك الرجل.

وبهذه الروح العالية كان يعمل خلفاؤه من بعده مقتدين به مترسمين خطاه، ناسجين على منواله مرتشفين من نميره الحلو وعذبه السلسبيل.

وبهذه الديمقراطية العالية سار أبو بكر بجوار أسامة بن زيد ماشيا وكان أسامة شابا في العشرين وأبو بكر فوق الستين إذ خرج من المدينة يودعه لغزوة مؤته.. فلما استحيا أسامة من ذلك، وأراد أن ينزل ليركب الخليفة احتجزه أبو بكر المتواضع، احتجزه بيده عن أن ينزل وهو يقول قولته الخالدة التي رددتها الأجيال وترددها مادامت السموات والأرضون. قال: "والله لا نزلت ولا ركبت وما علي لو غبرت قدمي ساعة في سبيل الله".

وكان ﷺ إذا رأى عمر ذاهبا للصلاة يقول له باسما: "يا أخي لا تنسنا من دعائك"!.

عجيب أمر هذا السيد العظيم!. يطلب إلى من اتبعه وكان هو أصل سعادته ومبعث هدايته أن يدعو الله له وهو ليس في حاجة إلى دعائه، وهو الذي خلقت الدنيا كلها من نوره وهو يعلم ذلك..

"يا أخي"!. ما أعذبها من كلمة!. وما أسعد الرجل بها؟.. لقد ازدهته العبارة وفرح بها فرحته بالجنة التي وعد بها من يوم أن هداه الله إلى الإسلام، وكان يرددها مزهرا بها في كل مكان حل به.. وعمر الشديد المهيب لا يزهو بشيء وهو الذي يمقت الخيلاء وهو، الذي نزع السهام من عمامة خالد لأنه فرح بانتصاره الحربي، عمر كان يزهو ويفخر ولا تسعه الدنيا على سعتها كلما تذكر قولة مُحَمَّد له:

"يا أخي!.." "لا تنسنا من دعائك!." "تكرم علي بدعواتك الصالحات يا عمر.."

بخ! بخ! يا بن الخطاب لقد رضي الله عنك إذ رسوله الأكرم يترضاك!

ثم كان.. في موضع آخر يترضى ثنايا عائشة، ويسألها العطف والاهتمام من ثنايا كلامه.. يا قوم إن كان في الدنيا مثل هذا فأروني.. بل إن لنا – نحن المسلمون العرب – أن نفخر بهذا النبي الديمقراطي العظيم:

أولئـــك آبـــائي فجئنـــي بمـــثلهم إذا جمعتنـــا يـــا جريـــر المجـــامع

ديمقراطيته بين أهله:

في عالمه المصغر لم يكن يختلف عنه في العالم الخارجي، عالم الرعية وعالم الدعوة تلك الرعية التي سعى لها سعيها وضرب لها المثل في كل نقيبة

طيبة وخلق كريم. وإذا كان المرء متواضعا ديمقراطيا في عالمه الخارجي أفيستتبع ذلك بالضرورة أن يكون كذلك في بيته؟

إننا نعرف أناسا كثيرين طيبين في الخارج حتى إذا دخلوا مساكنهم فهم الشراسة والوحشية، فما هذا التناقض في طباع الرجل الواحد وما الدافع إلى اتخاذ هذا المسلك المضاد؟

قد يكون التواضع وحسن المعاملة خارج الدار طلبا لمنفعة أو دفعا لمضرة لأن المرء محتاج في معاملاته مع الناس لأن يكون كيسا حسن الخلق وإلا كسدت تجارته أو تألب عليه الأعداء، فيضار ولا ينصلح له معاش. أما في داره التي يملك فيها أهله من زوج وولد مشدودين إليه بالحاجة فهو المسئول عنهم، وهم يتحملونه راضين أو كارهين أن استبد أو جار لئلا يختل نظام البيت ولئلا يقصر رب الدار في النفقة وهو مستبد على الأبناء من مأكل ومشرب ومسكن وباقي نفقات المعيشة..

وما كان محمد ﷺ على هذه الشاكلة لأنه كان يسير على قواعد ثابتة أخذ نفسه بها وراض نفسه عليها، فليس له عنها معدي ولا محيص. إنه يعامل الناس كإنسان لأنه يريد أن يعاملهم بالعطف وبالرفق وبالمودة وبالحنان، ولأنه يتقيد بروحانية وخلق ارتضاهما لنفسه واتخذهما سبيلا واعتنقهما وأحبهما، فهو يجد في حسن المعاملة للناس جميعا أريحية وسعادة دونها سعادة صاحب الخزائن، ومن يجلس على العرش ويتقلب في الثمار والأنهار ككسرى..

كريم لأنه جُبل على الكرم، لا تصنعا ولا تظاهرا ولا طلبا لمنفعة ولا دفعا لأذى وأنى يكون مُحَمَّد ﷺ بذلك الرجل الذي يطمع أو يخشى وهو يملك كل شيء؟

سمح لأنه يحب الناس لا لأنه يخشاهم فيترضاهم لأنه يخاف أذاهم، لأن ذلك المجتمع الخارجي يدين له بالولاء النابع من أخلاقه هو ويخضع لرياسته القيمة، وهذه أسمى درجات الكرم، أن تتواضع لمن ليس لك عنده حاجة، إنما يتواضع الإنسان للناس لأنه محتاج إليهم، يترضاهم بهذا وليس هذا أصيلا فيه.. وهذه عملية أقرب إلى التجارة منها إلى الأخلاق.. وما كان مُحَمَّد ﷺ تاجر أخلاق، وإنما كان صاحب مبادئ ومؤسس خلق ودين..كان في بيته وبين ظهراني أهله نعم القدوة والمثال.

حياته حياة البساطة المتناهية، ومعاملته زوجاته وبناته اللاتي لم يبق له منهن سوى فاطمة، وأحفاده مضرب المثل في الديمقراطية وحسن المعاشرة. "والمعاشرة" أقوى وأشمل من "المعاملة" وأعظم إبرازا للشخصية والخلق، لأن المرء بالعشرة يكون لصيقا بمن يلوذون به لأنه يعاشرهم ويعيش معهم، وليست مجرد "معاملة مصلحية" وليدة وقتها، وتروح بددا في زحمة الحياة وأحداث اليوم..

وبهذه الروح كان يعمل مرءوسوه وتلاميذه من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي..

ولنبدأ بذكر التلميذ – مثلا– قبل الأستاذ حتى يكون في صورة التلميذ المدخل إلى الأستاذ أو حتى يكون التلميذ هو العنصر الكشاف لجوهر الأستاذ وحقيقته..

عمر الشديد المهيب الذي كانت النفوس تطير هلعا من مجرد ذكر اسمه والذي اعترف هو نفسه بأنه غليظ بقوله: "رب إني غليظ فليني لأهل طاعتك" كان يلاعب الأطفال وكان يحب أبناءه حبا جما.. وإليك هذه النادرة التي وردت في عبقرية مُحَمَّد "للعقاد ص ٢٣٥ طبع دار الهلال "كتاب الهلال":

"كان يحب أبناءه. ويعرف وجد الآباء بالأبناء، وينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره.. أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبي صغير فجلس في حجره وهو يلاطفه ويقبله فسأله المرشح للولاية: "أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ إن لي عشرة أولاد ما قبلت أحدا منهم ولا دنا أحدهم مني.. فقال عمر: "وما ذنبي إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك إنما يرحم الله من عباده الرحماء".

ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول: "إنه لا يرحم أولاده فكيف يرحم رعيته؟".

نعم الحاكم العادل الشفيق الحدب، لقد سحب قرار التعيين من ذلك الحاكم، لأن مثل ذلك الحاكم الفظ المستعلي حتى على أولاده لا يمكن أن يأنس إليه الناس. إنه لا يرحم أولاده فكيف يرحم الناس العاديين

الذين ليسوا من صلبه؟ فهو طاغية نزعت الرحمة من قلبه وتمرغ قلبه في العبوس والفظاظة.. ثم أنه في فظاعته وقسوة قلبه ورهبته حجر لا يمكن أن يحس آلام شعبه أو يدرك آمالهم لأنه بعيد عنهم، فأنى يتولى حكم المسلمين مثل هذا؟ وأي امرئ كهذا يتولى الحكم؟.

ولنلق على أنفسنا هذا السؤال في معرض الكلام عن الرحمة: هل كان في استطاعة رجل كعمر أن يفعل مثل الذي فعله من المداعبة لطفل يجلسه في حجره ويقبله على هذا النحو الأبوي الكريم قبل أن يعتنق الدين الإسلامي ويتتلمذ على مُحَمَّد ﷺ؟

محال؛ فإن تاريخ عمر قبل الإسلام يشهد بأنه لم يكن أبدا على هذه الشاكلة..كان متكبرا قبل الإسلام، ولم يكن ودودا قيد شعرة، وكان من بطشه وجبروته إذا وقع حسامه على الأرض استنكف من أن ينحني لالتقاطه، لأن الانحناء عنده نزول عن مستوى أمير وصاحب ضياع كما كان في الجاهلية، ولكنه بعد أن عرف مُحَمَّدا ﷺ حدث في شخصه الانقلاب الهائل الذي ألان قلبه، وألقى فيه الحنان والشفقة من أثر هداية الرسول والقدوة الحسنة..

ولنعد إلى موضوعنا موضوع مُحَمَّد الأستاذ في الرحمة والتواضع، لقد كان مُحَمَّد ﷺ مع أسرته آيات للسائلين.. ذكرت السيدة عائشة من آيات تواضعه في بيته ما يرفعه فوق مصاف الرحماء في الدنيا بلا منازع ولا مكابر مهما يكن ومهما يضرب من أمثلة في هذا الاعتبار..

وسيكون عمر نفسه هذه المرة أيضا "العنصر الكشاف" لديمقراطية هذا السيد العظيم– مُحَمَّد ﷺ – وحسن معاشرته في بيته وبين ظهراني أهله فقد أعطى مُحَمَّد الكرامة للمرأة وجعل لها حق معارضته وهو رسول الله إلى حد الثورة عليه وإغضابه وهذا غاية التقدم والمدنية في عصر كانت الأنثى فيه تعتبر عارا ونذير شؤم على أبيها وقبيلتها في المجتمع العربي ومسبة كبرى إلى حد أن كانوا في الجاهلية يئدون البنات أحياء..

قال عمر: "والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم، فبينما أنا في أمر إذ قالت لي امرأتي لو صنعت كذا وكذا؟. فقلت لها: ومالك أنت ولما ها هنا، وما تكلفك في أمر أريده؟. فقالت لي: عجبا يا بن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان!؟ فأخذت ردائي ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فقلت لها: "يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟" فأجابت: "إنا والله لنراجعه!" ثم خرجت حتى دخلت على "أم سلمة" لقرابتي منها فكلمتها فقالت لي: "عجبا لك يا بن الخطاب! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وبين أزواجه؟"، فأخذتني أخذا كسرتني به عن بعض ما كنت أجد".

انتهى عمر من سرد روايته، وهي رواية إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الرسول ﷺ قد أحدث انقلابا هائلا في حياة المرأة، وجعل لها مكانة جديدة في المجتمع الجديد بسماحته وديمقراطيته بأنه كان عليه السلام

يبيح لنسائه أن يراجعنه في كثير من الأمر، وهذا تكريم للمرأة واعتراف بقدرها ومكانتها في الحياة الإسلامية الوليدة، وبأن لها رأيا وأنها ليست سلعة تباع وتشرى، أو أنها حلية للمتاع أو أداة للطهو والغسل وإنجاب الذرية!

لنا ملاحظة هنا على أسلوب ابنة عمر في إلقاء هذه العبارة أو هذا الرد في هذه العجالة القصيرة التي غيرت مجرى الشعور عند عمر نحو المرأة بعامة:

"إنا والله لنراجعه!" فلقد أرسلت الكلام في أناقة وحرص، وتعمدت تعمدا أن تتبع أسلوبا معينا في الرد لتغلق الباب عن كل رد أو شك في أنها قصدت غير الذي قالت، أو أنها مترددة أو غير متذكرة، أو أن الخبر الذي تورده ضعيف ولم يتكرر مضمونه عند الرسول، لقد تعمدت أسلوب التوكيد بل لقد أكدت قولها بثلاثة مؤكدات كل مؤكد منها يباري صاحبيه في نفي الشك وإبعاد مظنة الخطأ عند السامع وذلك بإيراد "أن" و"القسم" و"لام التوكيد".

قالت: إنا والله لنراجعه. ولم تقل نحن نراجعه أو "أننا نراجعه" بمؤكد واحد فقط، وإنما استنفدت كل أساليب التوكيد الممكنة وهي أعلى الدرجات في البلاغة وهو ما يسمونه "خبر من الضرب الإنكاري" وهو النوع الثالث من أنواع الخبر والأعلى درجة في قوته ودلالة يقينه وشاهد صدقه، وهو الذي يؤكد بمؤكدين أو أكثر؛ فأكدت حفصة قولها على هذا

النحو، لئلا تجعل لأبيها منفذا للشك أو التردد أو سبيلا إلى المراجعة، مراجعتها في صدق ما قالت..

حدث هذا في بيئة لما تزل متشبعة بالأفكار الرجعية متشيعة للعادات البالية، بأن المرأة إن أمكن أن تعيش وتتحاشى "الوأد" فهي ما خلقت للمشورة أو الحديث، وإن كان ثمة حديث فحديث تسلية أو رواية حكايات.. أما الرأي فليس من شأنها والعقل ليس من شغلها، إنما هي لعبة يلعب بها، ثم تترك كما قال عمر نفسه لامرأته ذات يوم..

وهنا معنى آخر من أسمى معاني الإنسانية التي جاء بها القرآن وهو مبدأ الشورى، والرسول عليه السلام لو استقل برأيه فلا تثريب عليه لأنه رسول ونبي ولكنه يضع لنا منذ أربعة عشر قرنا وتزيد أساسا من أسس الشورى بالاتساع فإنه لم يستشر وجوه الرأي من الرجال فحسب بل يستشير المرأة أيضا..

إنها حرب على الرجعية.. حرب على التأخر والجمود.. حرب على التخلف.. حرب على عبودية الإنسان عبودية النصف الآخر الذي به وجدنا على هذه الأرض، وهذا مبدأ قويم من مبادئ "ديمقراطية الحكم" وقد أوردنا شبيها به حكاية استشارة الرسول "لأم سلمة" وذلك في باب "مبدأ الشورى في التطبيق العلمي" في مسألة صلح الحديبية..

كما قال النبي عليه السلام "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء"، يريد بها السيدة عائشة، بل لقد أباح لزوجاته الاسترسال في مراجعته إلى

حد إغضابه، ولم يكن يرى في ذلك أية غضاضة، لأنه يضع نظم الحكم والحضارة الجديدة لمجتمع جديد.. إنها آية الديمقراطية الحقة.

وفيها ما فيها من التجديد والابتكار في الحياة الاجتماعية ونبذ التخلف ومحاربة الجمود ونقل الحياة من حالة الذل والهوان إلى شكل جديد رائع، رائده العدل والمساواة والإقرار بآدمية الإنسان وكرامته.. فلقد حرر مُحَمَّد ﷺ المرأة وأعطاها حقوقها كما حرر العبيد!!. وقد قرنا المرأة "بالعبيد" لأن المرأة كانت ترسف في أغلال الذل كالعبيد تماما ولم يفك أغلالها إلا مُحَمَّد (ﷺ)

وكثيرا ما كان النبي يلاعب أزواجه ويمازحهن ولم يكن "رسميا" معهن كحاكم أو جاعلهن دبر أذنه على مألوف عادة العرب لذلك العهد، ولنترك السيدة عائشة نفسها المتكلمة باسم زوجها مُحَمَّد ﷺ تقص علينا قصة المسابقة الطريفة التي جرت بينهما؛ فتقول أنها خرجت مع النبي في بعض أسفاره وهي بعد جارية هيفاء ليست بذات اللحم المترهل؛ فقال النبي للناس "تقدموا". فتقدموا، ثم قال لعائشة: "تعالي حتى أسابقك". فتسابقا فسبقته عائشة فسكت ولم يتذمر..

وتسترسل عائشة في سرد حكايتها: "حتى إذا سمنت وزاد وزني وكنا في سفرة أخرى قال للناس: "تقدموا" ثم قال لها "تعالي حتى أسابقك". فتسابقا فسبقها ﷺ، فأخذ يضحك ويقول: "هذه بتلك!"..

ديمقراطية وتواضع ورفع كلفة، وكان عليه السلام يقول ويردد: "خيركم خيركم لأهله".. (رواه الترمذي وابن ماجة).. وكذلك طبقها تطبيقا عمليا.. وكانت عائشة تقول: "ما ضرب شيئا قط، ولا ضرب امرأة ولا خادما"..

والمقصود بالمرأة هنا الزوجة ومن معاني المرأة "الزوجة"، وفي القرآن: "امرأة فرعون" و"امرأة عمران"، "وكانت امرأتي عاقرا"، والسيدة عائشة في قولتها الآنفة تتحدث عن الرسول في داره..

والضرب ضرب من الاستعلاء على المضروب، ومن مظاهره احتقار واستصغار المضروب، والديمقراطية تكاد تتنافى مع هذا إلا أن يكون ثمة سبب ظاهر يحتم الضرب صونا للحياة إذا لم يكن معدي عن الضرب إصلاحا للمجتمع وتقويما لاعوجاجه كضرب الابن عندما يجد الأب إلا مناص من انحرافه إن لم يؤدبه بالضرب، فلا مناص إذن من استعمال هذه الوسيلة الرادعة..

وكان الرسول ﷺ من قوة الشخصية وسمو المكانة بحيث تكفي كلمة منه للزجر والإرجاع وحتى لو احتاج إلى الضرب فلن يفعله ولن يقبله.. ولو لم يكن ديمقراطيا لما أكرم المرأة هذه الكرامة.. وفيما نرويه الآن شاهد صدق آخر على ديمقراطية مُحَمَّد، وأنه أخذ نفسه بالتواضع والتقرب إلى الناس لأن الناس لم يكونوا حيوانات ولا سوائم بل كلهم لآدم وآدم من تراب..

وفيها – أي هذه الحكاية التي نرويها الآن عن ابن هشام – آية تواضعه وتكريمه للمرأة وحرصه على القرابة وصلة الرحم.. قال ابن هشام:

"قال ابن إسحاق: وحدثني سعيد بن أبي هند عن أبي مرة مولى عقيل بن أبي طالب أن أم هانئ ابنة أبي طالب قالت: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة، فر إلي رجلان من إحمائي من بني مخزوم وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي: قالت فدخل عليّ علي بن أبي طالب أخي فقال والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى. ثم انصرف إلي فقال: مرحبا وأهلا بأم هانئ، ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي فقال: قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فلا يقتلهما". "السيرة" ٤– ٣٠، ٣١.. ولم يستطع علي أن يقتل الهاربين، فقد صدر العفو من رئيس الدولة، وهذا أشبه شيء بما تأخذ به النظم الديمقراطية المعاصرة من منح الحاكم الأعلى للدولة حق العفو بعد صدور حكم المحكمة باستحقاق الموت أو نحوه من سائر العقوبات..

وكان الرجلان من بني مخزوم حقيقين بحكم الإعدام من أحد قادة الرأي في الإسلام المنزهين عن الغرض، وكان "علي" أعلم أهل زمانه والأول من أربعة كانوا هم أول من اعتنق الإسلام، ثم هو ابن عم النبي وابنه وربيبه وهو أثير عنده وموضع الرجاء من فؤاده، ومكانته عند الرسول

سامقة رفيعة، وقد قال فيه الرسول ﷺ: "أنا مدينة العلم وعلى بابها" فحكمه حكم صائب، والرجلان مستحقان للموت ما في ذلك شك..

ثم أن هذا العفو من الرسول ينطوي – كما قلنا – تحت باب تكريم المرأة ولولا ديمقراطيته عليه السلام لما أبه لها، ولا التفت إلى توسلاتها بل لجعلها دبر أذنه برغم أنها ابنة عمه، والقصاص لا شفاعة فيه ولا رجاء إلا أن تكون سماحة نادرة المثال!

سماحة الإسلام وسماحة من جاء بالإسلام.. ولذلك رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا.. وهنا أيضا النخوة العربية..

ومن أعجب ما قرأته عن النبي ديمقراطيته التي لم يعرف التاريخ لها مثيلا وقلبه الذي ينبض بأسمى معاني الحب، وأنه عليه السلام لم يكن متزمتا ولا "مستشيخا" وأنه بشر، كما قال عنه ربه في قرآنه وأنه ككل البشر رجل له قلب يجيش بالعواطف والأحاسيس، يحزن عند الحزن ويفرح لدواعي الفرح ويمتعض ويهتم ويحس بالجمال والحسن– هذه الحكاية!

من أعجب هذه النماذج البشرية ما جاء في الصحيحين عن عائشة أيضا أنها قالت:

قال لي رسول الله ﷺ: "إنني لأعلم إذا كنت راضية عني وإذا كنت على غضبي".

فقلت: "من أين تعرف ذلك؟".

قال: "أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: "لا ورب مُحَمَّد". وإذا كنت على غضبي قلت: "لا ورب إبراهيم".

قلت: "أجل والله يا رسول الله لا أهجر اسمك!".

بخ! بخ!.. إنه تواضع ديمقراطي وذكاء وفطنة وتكريم جديد للمرأة ورفع لقدرها الذي سلبتها إياه الرجعية والتأخر وعبودية الماضي.

قوة ملاحظة، مراقبة دقيقة لمسلك زوجته نحوه، وشعورها قبله وعد لنبضات القلب، وتقييم لدرجات الحب..

أفي العالم كله تواضع مثل هذا؟

يترضى زوجه وبينه وبينها من العمر ما يقرب من نصف قرن! يشعرها بسعادته الغامرة برضائها عنه وهو رسول من حقه التقديس والعلو على مستوى البشر!

هكذا وضع النبي للعالم المتحضر مبدأ "شريكة الحياة"، فبأي قلب كان يحس مُحَمَّد؟

بقلب أرق من الورد وأزكى من عبيره.. رقة لو قسمت على جميع البشر لكانوا كلهم رحماء.. وبأي عقل كان يفكر مُحَمَّد؟ بعقل سبق جيله بآلاف السنين.. عقل مستنير متفتح في عصر لم يعرف النور..

وبأي فخر كانت تزهو عائشة ولو بينها وبين نفسها– على الأقل– عندما يمثل أمامها القوي العظيم والرئيس المشرع الذي بيده الحل والربط في دولة أسست على أنقاض الفوضى وقامت على خرائب البؤس والتعس، يطلب قلبها ويتوسل إليها من ثنايا كلامه أن تداوم على رضاها عنه.

كان هذا هو حديث عائشة عن زوجها فبأي حديث بعده يؤمنون؟..

حديث الحب. حديث اليقظة. حديث الفطنة. حديث الرباط المقدس. حديث الديمقراطية..

إنها النفس الشفافة والقلب الكبير..وبهذا يعمر الكون، وبه يصير التعاون، وبه يسير التواضع السمح، وبه ينشأ الأبناء على الحب لمن له أبناء، لأنهم لم تتفتح عيونهم إلا على الحب.. فلا تخلق نفوس شريرة أبدا، لأن النفوس الطيبة لا تنبع إلا من حب..

ولم تتكبر عائشة أو تستغل مثل هذا الحب والتواضع لتكون لها الرياسة أو السلطان في البيت كما تفعل بنات حواء في هذا الزمان لتناحر رجلها وتناجزه فيبدأ الصراع على السلطان– بسببها– ولا تفتأ هي تعابث وتخابث وتناوش، حتى يكون خراب البيوت أقرب إليهن من حبل الوريد.. ثم.. وعدته وعدا صادقا، وعد حرة، وعد امرأة نبي، وعد أم للمؤمنين، وعد تلميذة للداعي الأعظم الذي لا يكذب ولا يمين أن تظل على رضاها عنها: "والله يا رسول الله لا أهجر اسمك". اسمه المبارك.. مُحَمَّد، وبذلك

فرحت بزوجها وقرت به عينا ولم يكن في النساء امرأة أسعد منها وعلمت أنه هو نفسه راض ومحب، ومشغول بها، ولولا هذا لما راودها الرضاء والحنان، لأن الذي يحرص على الظفر بحبك هو ذاته يخلص لك حبه وإلا ما أعارك التفاتا..

مستقبل العروس:

أما في زواج بناته فقد كان ﷺ من البساطة والديمقراطية بحيث لا يقرر ولا يفرض ولا يضغط ولا يرغم ولا يزف بالغضب أبدا.. لم يكن ليدع الواحدة من بناته يكتب عليها ما لم يأخذ رأيها في شريك حياتها المحتمل، فإنه مستنير ويعرف أن الأمر يعنيها هي وحدها أكثر من الأب والأم والأقارب..

ونحن لا نزال الآن هنا في زماننا هذا وفي القرن العشرين يرجع بنا الآباء القهقرى إلى سنوات الجاهلية الأولى في زواج بناتهم وخاصة في الريف المصري.. نعم لقد تطور المجتمع ولكن لا تزال هناك رواسب في قاع الإناء، إناء المجتمع.. يجتمع أهل الأسرتين ويقولون: فلان لفلانة.. بل لقد زوجوا أطفالا في المهد؛ فيعيشون تعساء من المهد إلى اللحد، أعني مهد الحياة الزوجية..

وإذا قرروا أن يتزوج فلان بفلانة، فلابد: يتزوج فلان بفلانة ويجرع أحدهما الآخر على غصة ومرارة لربط الأواصر العائلية بحسب أو غنى، أو مخافة البوار أو لأنهم أبناء عمومة أو خئولة أو تخلصا من النفقة على

الفتاة.. أو خشية العار إن هي بقيت عانسا في بيت أهلها.. حتى إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة تنافرت القلوب، وكان الشقاء وكان الشقاق وكان الطلاق، أو كان الصبر على مضض من معركة إلى معركة من أجل الأبناء التعساء، تصفو القلوب لتعود أشد كدرا وعكارة مما كانت، وفي الحلق غصة وفي القلب نفار لا نار، ووراء الكواليس قصة حب بآخر أو بأخرى ويكون السير المعوج والبقية يعرفها القراء.

وقد طبق الرسول روح الديمقراطية.. الديمقراطية السمحة التي كانت أصيلة فيه لا دخيلة ولا مستحدثة والتي نادى بها ودعا إليها في كل مناسبة، فما المرأة بالسلعة التي تباع بمهر مهما بلغ.

ولقد كان زواج "زينب بنت خديجة" وكبرى بناته ﷺ وأول من أنجب من الأبناء آية لذلك؛ فعندما طلب "أبو العاص بن الربيع" يد زينب من أبيها وكان أبو العاص ابن خالتها لم يفرضه النبي عليها، على قرابته منها وحسن شمائله ودماثة خلقه فقد أدرك ﷺ أنه لا القرابة ولا الخلق الحسن السبيل الوحيد إلى الحب برغم أنه كان يعلم يقينا كما أخبرته خديجة، وكما لمس هو من مجرد نظرته إلى قلوب الشابين كم كانا يكابدان من تباريح الحب ورسيس الهوى.. بيد أنه ﷺ تأبى وأراد أن يضع لنا مبدأ من مبادئ الاجتماع المعاصر فلم يوافق للتو، لكنه مع ذلك تلطف مع أبي العاص لئلا يصدمه وتلقاه بين حنايا الوالد الرحيم..

ولندع الدكتورة بنت الشاطئ تقص علينا القصة فإنها لسيدة وأخبر منا بأمثال تلك الشئون.. قالت بنت الشاطئ في كتابها "بنات النبي" ص ٧٩ و ٨٠ ما يلي:

"وقد أحسن "مُحَمَّد" لقاء "أبي العاص" كما اعتاد دائما أن يفعل وأصغى بملء سمعه إليه وهو يعرب له عن رغبته في الزواج من "زينب" ثم كان جوابه، إنه نعم الصهر الكفء، لكنه مع ذلك يرجو أن يمهله ريثما يعلن هذه الرغبة إلى ابنته، فإنها لأهل لأن تكون صاحبة الكلمة الأولى في أمر جليل كهذا، يعنيها أكثر مما يعني أي فرد سواها.

وكان الأب الكريم يعرف شعور ابنته نحو "أبي العاص" ورأيها فيه، لكنه على ما يعرف من هذا كله، لم يشأ أن يقطع في الأمر دونها وأراد بعد كل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة فعهد إلى أمها أن تسبقه إليها بالنبأ السعيد ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان: "بنيتي زينب، إن ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك". ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا، فقد كان يعرف أن حياءها سوف يمسك لسانها عن الرد، اللهم إلا إذا كانت تأبى الزواج بالرجل فتتغلب على حيائها كيلا يتم الأمر على ما تكره، وتريث الأب برهة يصغي، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ودعوات الأم الحنون، وإذ ذاك عاد إلى حيث ترك أبا العاص ينتظر، فصافحه مهنئا داعيا مباركا" (انتهى كلام بنت الشاطئ)

إذن لقد وضع لنا الرسول ﷺ مبدأ المشورة في مسألة الزواج، فلا غصب ولا إكراه، مشورة الفتاة التي هي المعني الأول في مسألة تخصها هي، وهو المسئول الأول فيها عن سعادتها أو تعسها، فهي التي ستتزوج الرجل وهي التي ستعيش معه في كن واحد يضمهما ذلك الكن أو العش إن لم يكن مبطنا بالحب والوئام والوفاق فلا كان البتة..

فأي تصرف كان يمكن أن يكون أعظم من هذا في تحرير المرأة؟

ألا فليسجل التاريخ وليعتبر آباء هذا العصر الحديث الذي يجعلون الزواج الغصب دينهم وشريعتهم، ويجعلون من المرأة بضاعة يأخذها ذو المهر الأعلى. فهل المرأة تباع بنقود! حقا إنها نخاسة.. حقا إنها تعس.. والفتاة لا حول لها ولا طول..

وكانت سياسته عليه السلام في تزويج بناته الأخريات: رقية وأم كلثوم.. من عتبة وعتيبة.. ابني أبي لهب – قاتله الله– السياسة نفسها، ثم إلى عثمان بن عفان ﷺ، والسيدة فاطمة الزهراء.

من ذلك قوله لعمه أبي طالب حين جاء يطلب رقية وأم كلثوم لابني أبي لهب: "معاذ القرابة والرحم، لكن هلا أمهلتني يا عم، حتى أتحدث في هذا إلى ابنتي؟" وهكذا..

مع حبات القلوب:

أما حبه للأطفال وحدبه عليهم وملاعبته لهم ومداعبته وديمقراطيته معهم فكانت مضرب المثل، وقد سبق أن ذكرنا ما رواه المرحوم الدكتور مُحَمَّد حسين هيكل من أنه عليه السلام كان يلاعب أبناء المسلمين ويجلسهم في حجره. وكان له مع الحسن والحسين ابني فاطمة وإمامة حفيدته لابنته الكبرى زينب أحاديث عجيبة وقصص غريبة لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر.. واهتمامه الشديد بالحسين خاصة دليل على نبوءته وصدق فراسته في المستقبل الخطير الذي كان ينتظر الحسين في خلافه مع يزيد بن معاوية وفي أن سيكون من سبطه الشيعة الفاطميون، فلقد أحب حسينا الحب كله ودعا الله أن يحبه ودعاه تعالى أن يحب من أحب حسينا.. وكان يأخذ بكتفي الحسين، وقدماه على قدمه عليه السلام، ويرقصه قائلا: "ترق ترق".. فلا يزال الصبي الصغير يرقى حتى يضع قدميه على صدر جده الحنون فيقول له: "افتح فاك". فيفتحه، ويقبله ﷺ وهو يقول: "اللهم أحبه فإني أحبه"..

ورآه النبي ذات يوم يلعب مع لداته فتقدم أمام القوم فبسط يديه محاولا أن يمسك به والغلام يفر هنا وها هنا، فما زال يضاحكه ويلاعبه حتى أخذه فوضع إحدى يديه تحت قفاه، والأخرى تحت ذقنه ثم قبله وقال: "حسين مني وأنا من حسين.. أحب اللهم من أحب حسينا". والناس من حوله خاشعون إجلالا يقول قائلهم: أراه ﷺ يصنع هذا

بحفيده، فوالله إن لي ولدا وما قبلته قط! فيرد عليه السلام قائلا: "من لا يرحم لا يرحم".

من لا يرحم لا يرحم.. دعوة إلى الإنسانية وتغليب القلب عندما تحتاج الإنسانية إلى القلب.. عندما يخلص الإنسان من متاعب اليوم يداعب حبات القلوب.. إنه الروح الشفاف..

إن مرأى الأطفال يدعو إلى العطف والمحبة، ويتطلب القلب ونزعاته العاطفة.. يتطلب التدليل والهشاشة، ومن لم يكن كذلك فإن قلبه قد قد من صخر.. نعم، من لا يرحم لا يُرحم..

قالها الرسول داعيا إلى الرحمة، وكررها في أكثر من مناسبة وقال فيه ربه: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ".

أو ليس هذا يدحض ادعاء الكاتب الانجليزي "فيشر" في كتابه "تاريخ أوربا" من أن مُحَمَّدا كان فظا غليظ القلب؟!.. ثم أن قوله تعالى في كتابه العزيز "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" يدحض هذه الفرية.. أو لم يكن مُحَمَّد ﷺ رحيما أبعد ما يكون عن الفظاظة التي رماه بها "فيشر" وذلك حين مر يوما ببيت فاطمة وهو متعجل فبلغ سمعه صوت بكاء الحسين فدلف إلى الدار يقول لابنته: "أو ما علمت أن بكاءه يؤذيني؟"، وكان عليه السلام أشد ما يؤلمه بكاء الأطفال..

نعم.. لقد كان جدا حفيا بولدي فاطمة وبأمامة بنت زينب– ابنته الأولى– برغم مشاغله الكثيرة في نشر الدعوة وتثبيت العقيدة الجديدة في النفوس وبرغم الذي كان يعانيه منذ بدأ في نشر دعوته من الاضطهاد الديني الذي من شأنه تغليظ القلوب الرقيقة حتى تصير كالحجارة..

وحدث يوما ما أن ألفى ابنته وزوجها وقد غلبهما على أمرهما النعاس والحسن يبكي ويطلب طعاما فلم يهن عليه أن يوقظ النائمين ويقلق مضجعهما، وإنما أسرع إلى غنمة بالدار فحلبها وسقى الحسن من لبنها حتى شبع وارتوى..

إن هذه الحادثة على صغرها وضآلتها ذات معان شريفة وظلال من الفضل وريفة؛ فقد أبت عليه رحمته أن يوقظ نائمين استسلما للكرى فراحا هانئتين بهذه الغيبوبة التي تريحهما من عناء عمل يوم شاق.. وقام بالخدمة فكان ديمقراطيا بما يغني عن أي كلام.. وهذا الفعل منه ينضح بالتعاون الصراح والاشتراكية..

أيحق لـ "فيشر" بعد هذا أن يقول عن مُحَمَّد ﷺ في كتابه "تاريخ أوربا" أنه فظ!. بل "هو" الفظ.. "فيشر" ذلك الكذاب الأشر.. يا للمتخرص الكذاب.. ويله ذلك المتعصب الحقود..

أما أمامة بنت زينب وحفيدته فما كانت بأقل حظا من "الحسين" في رفقه وحنانه.. ورحمته.. أعني النبي عليه السلام.. رحمة لو قسمت على الناس جميعا لكانوا كلهم رحماء، برغم أنف "فيشر" ومن لف لفه من غلاة

المستعمرين.. روى أبو داود عن أبي قتادة: "بينا نحن ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهر أو العصر إذ خرج علينا رسول الله وأمامة على رقبته فقام في الصلاة وقمنا خلفه، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها، وإذا رفع رأسه من السجود أعادها.. وكان يمنحها الهدايا وهي طفلة تلعب..

وروى ابن سعد في "الطبقات الكبرى" كما روى غيره عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: "أهديت له هدية فيها قلادة من جزع معلمات بالذهب ونساؤه كلهن مجتمعات في بيت وأمامة تلعب في جانب البيت فقال: "كيف ترين هذه؟".. فنظرن إليها فقلن: "ما رأينا أحسن منها ولا أعجب"؛ فقال: "لأدفعنها إلى أحب أهلي إلي"؛ فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة.. (يعنين بذلك عائشة)؛ فدعا ﷺ أمامة بنت زينب فعقدها بيده في عنقها، وهكذا يكون حب الأحفاد.. أو يحق لـ "فيشر" بعد ذلك أن يقول في كتابه "تاريخ أوربا" عن مُحَمَّد ﷺ أنه غليظ!

ولن أجد ما أتوج به هذا الفصل من دلائل الفضل إلا حديثا له هو جماع الخلق الرضى السمح فهو فوق دعوته إلى التواضع، أي الحديث ذاته، فيه مساواة وعدل وديمقراطية، إنه تحريرٌ للعبيد.

مساواة وعدالة اجتماعية، وديمقراطية بمعانيها الثلاثة: "التواضع، والمساواة، وحكم الشعب بالشعب".. "التواضع" لأنه يندد بالمتكبر ويسلكه في سقر مع الكفرة الخالدين.. "المساواة" لأنه ينهي عن الكبر الذي هو استعلاء وتمييز.."حكم الشعب" لأن الحاكم الذي يندد بالمتكبر

لا يكون هو نفسه متكبرا ويكون ألوفا وودودا يحس آلام شعبه، ويثبت بذلك أنه منه والشعب ولا شك راض عن ذلك الحاكم العادل الذي يحارب كل ما من شأنه العنجهية والاستعلاء..

إنه قوله ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر".

حبا وكرامة يا خير من أقلته الأرض..

الفصل الثالث

ديمقراطية المساواة

إليكم جميعا:

قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ". (سورة الحجرات).

وقال جل شأنه: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا" (سورة الأعراف).

وقال عز من قائل: "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ولا يَتَسَاءَلُونَ". (سورة المؤمنون).

وقال تباركت آلاؤه: "لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ولا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ". "سورة الحجرات".

وقال تعالت أسماؤه: "ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ". "سورة البقرة".

وقال مخاطبا رسوله: "ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ". (سورة الأنبياء).

"لِّلْعَالَمِينَ" لا للعرب وحدهم..

"إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ". (سورة الروم).

ولم يقل آيات "للبيض" أو "للعرب" أو "لأهل الحجاز" أو "لقريش" مثلاً..

وقال ﷺ: "كلكم لآدم وآدم من تراب".

وقال عليه السلام: "الناس سواسية كأسنان المشط".

وقال "المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم".

وقال: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية".

ليس منا.. أي: "ليس من المسلمين" وكرر "ليس منا" في كل عبارة تأكيداً للذي قصد إليه

الآن.. لو بحثنا في تاريخ الإسلام وما جاء في نظم اجتماعية يراد بها خلق حياة جديدة نافعة للأجيال المتقدمة والمتأخرة على سواء لما وجدنا مبدأ من المبادئ الإنسانية التي دعا إليها الإسلام في القرآن.. وعلى لسان الرسول أكثر من مبدأ المساواة؛ فبالإضافة إلى الآيات والأحاديث التي

ذكرنا آنفاً نرى مئات الآيات والأحاديث التي تقصد إلى العدالة الاجتماعية وإزالة الفوارق بين الطبقات والقضاء على الذل والعبودية، وتحكم الإنسان في أخيه الإنسان، بل إننا لو تصفحنا القرآن الكريم سورة سورة، آية آية، وأحاديث النبي كلها، وأقوال الخلفاء الراشدين لوجدنا أنها في جملتها تدعو إلى المساواة بين البشر كافة وأنها في عددها لا تكاد تقع تحت حصر..

أو ليس مجرد وقوف المسلمين للصلاة صفاً، العظيم بجانب الحقير والغني بجانب الفقير والكبير بجانب الصغير، ولو كان ما بينهما من فارق السن هو فارق الطفولة والشيخوخة مؤتمين بإمام واحد، يتساوون خلفه في الطاعة على حسب ما يتحرك أياً كان نوع هذا الإمام أو جنسيته أو سنه أو حتى ثقافته.. أو ليس هذا أول مبادئ المساواة وأعظم مظهر للمساواة؟

بل إننا لا نغالي إذا قلنا أن المبدأ الثاني بعد الإيمان بالله هو المساواة لأن الإيمان بالله معناه العدالة ولا كرامة لإنسان في ظل العبودية أو التفرقة العنصرية أو العنجهية الشعوبية؛ فالتفرقة العنصرية إهدار للآدمية وهبوط بالإنسان إلى الدرك الأسفل من المهانة والذل.. كل شعب يقول أنا خير منه، من الشعب الآخر، وجعل المجتمع طبقتين (سادة، وعبيد) شيء تأباه الكرامة ويأباه العقل وينفر منه العدل..

القديم والجديد:

لعل من أكبر أسباب انصراف العرب عن الدين الجديد الذي جاء به مُحَمَّد من لدن حكيم خبير في مستهل دعوته كلف الإنسان بالتقليد وميله إلى المحاكاة بالسليقة لأن الإنسان حيوان مقلد ومرتبط بعادات متأصلة راسخة في أعماق نفسه انحدرت إليه من أصلاب آبائه وأجداده ومن البيئة المصبوغة بتلك العادات منذ القدم، وقد ألفها وجرت في جسده مجرى الدم في الأوعية وارتاح إليها وشعر بنشوتها ذلك لأن الإنسان أسير العادة ومن العسير الفكاك من شيء اعتاده المرء منذ غادر بطن أمه ودخل إلى هذه الحياة. فماذا – إذن – عن مذهب جديد على العرب تمام الجدة يقوض المجتمع كله ويزلزله من أركانه ويهدمه من أساسه ويسفه أحلام الآباء والأجداد وأعمال السلف.

فكان أكثر ما انتحله الكفار من عبارات وحجج لمحاربة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، والصد عن سبيله، سبيل الدعوة الإسلامية وإبداء النفور من هذا الدين الجديد وعدم تقبله بادئ ذي بدء والوقوف دونه بالسلاح والعدة والحجة والبلاغة والخداع والغش هو ما تكرر في القرآن أكثر من مرة على لسان المشتركين من قولهم: "هذا ما وجدنا عليه آباءنا".

ومهما يكن من شيء فإن هذه الصيحة أو الصحوة التي جاءت من ذلك الفتى اليتيم بناء على أمر ربه نبهت العرب كلهم إلى فساد الأوضاع القائمة فمنهم من آمن طلباً للحرية وتبوأ مكانه في المجتمع الآدمي الذي

أنكرته عليه السنون المتعاقبة من الذل والجهل والحرمان وتحكم الفرد هؤلاء هم الأرقاء المستبعدون الذي ابتغوا من الإسلام – فوق إقراراهم بوجود إله واحد لا شريك له – الفكاك من آثار الذل ورقة العبودية..

ومنهم من أسلم على غنى وسيادة لأن الدعوة المحمدية صادفت هوى في نفسه واستعداداً فطرياً للخير وتقبل المبادئ الإنسانية القومية التي نادى بها الإسلام حتى لقد نزل الكثيرون من هؤلاء السراة الثراة كعثمان وأبي بكر عن مالهم كله أو جله لتحرير الأسرى المعذبين من سادتهم ولنشر الدعوة أيضاً..

لكن الذين أبوا أن يعتنقوا الدين الجديد كانوا طوائف، فمنهم من كان من الجمود والغباء بحيث طبع طبعاً لا يحيد شعرة عن ذلك الإرث الموروث من العادات والمعتقدات الفاسدة ومنهم من آمن بإله واحد ورسالة مُحَمَّد ﷺ لكنه اعترض على بعض أركان الإسلام كالسجود في الصلاة وكالزكاة التي ستستقطع شيئاً من مالهم بقانون[٧].

لكن أقوى دوافع التمسك بالقديم ومناهضة الحديث وأشدها رسوخاً هو ما ألفه سادة قريش من أمثال أبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان من نظام النخاسة والرق أو نظام السادة والعبيد الذي استمرءوه منذ كانوا..

(٧) ارجع إلى كتابنا "أبو بكر والوحدة" طبع الدار القومية.

فما كان أسعدهم وأروح لنفوسهم ولا أعلى لشأنهم ولا أدعى للفخر والخيلاء ولا أرفع للحسب وأحفظ للنسب من أن يكونوا ملوكاً وسادة ومن حولهم العبيد والأرقاء والإماء يتحكمون فيهم كيف يشاءون يأمرونهم فيطيعون ويعذبونهم لأهون سبب فلا يشكون لأنه ليس هناك حكومة..

وإذا كان من العسير عليك أن تسلب إنساناً حقاً اكتسبه مهما كان تافهاً عديم الشأن، فما بالك بمن جاء ليسلبهم مجتمعهم كله ودنياهم دنيا العزة الاستعلاء ودنيا الآباء والأجداد..؟

تلك حجتهم.. حجتهم داحضة!

وأية داهية تلك التي تسوي بينهم وبين عبيدهم الذين يشتغلون في أراضيهم بالفتات، ويقومون بأحط الحرف "كما هي الحال في الولايات المتحدة الآن أعني حال الملونين" بل بلا أجر وهم محكمون فيهم كما يتحكمون في السائمة لأنهم شروهم بمالهم. فلم يكن للعبد منهم أن يترك أرض سيده ويذهب ليعمل لدى سيد آخر لأنه مملوك له بالمال ولا يجوز إلا أن يباع.. عليهم أن يشتغلوا وأن يستغلوا ويكدوا ويكدحوا حتى تصير أجسامهم كالأوتار من أجل سادتهم، وحسبهم نعيماً أن يسمعوا – إن سمعوا – كلمة رضاء من ذلك السيد لأنهم هو الآخرين قد ألفوا هذا الوضع الذي انحدر من أجيال فلم يجدوا من ينبههم إلى فساده ولم يجدوا عنه معدى ولا محيصا...

وفي الوقت الذي كان الشعب فيه يئن تحت وطأة الجوع.. ينخر جسمه المرض كان الملك أو سيد القبيلة يكيل المال للشاعر في قصيدة يمدحه بها هو وأسرته ويرفعه كذباً إلى مصاف عظماء التاريخ، من ذلك ما كان من النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة وما قاله فيه من أكاذيب طمعاً في عصافيره "أي ابله" مما ورد ذكره مراراً في كتب التاريخ..

ولنضرب مثلاً واحداً من ذلك التاريخ السحيق وهو قول الشاعر نفسه في النعمان:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني وشاية ... لمبلغك الواشي أغش وأكذب

فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فهل هذا صحيح؟

هل صحيح أن النعمان بن المنذر كان على هذه الصورة المثالية أو أن العطاء هو الذي أجرى لعاب الشاعر؟

"أعذب الشعر أكذبه". هكذا قالوا، وكان شعرهم كله – إلا اللمم – هراء في هراء، شعر في سبيل الرفد والعطاء فأي مجتمع هذا؟ لقد أحس العرب هذا وأدركوه فقط عند ما جاء النذير، ومن ثم قامت الثورة.. لأن

أول أسباب الثورة الشعور بالظلم، وقد جاء مُحَمَّد بن عبد الله ذلك الفتى اليتيم الفقير ليدق الناقوس الذي سمع في جميع أنحاء العالم من الصين إلى بلاد غالة "فرنسا" والأندلس.

كان مبدأ المساواة– إذن– هو السبب الأول للنفور من الدين الجديد والصد عن سبيل الله من فئة الإقطاعيين أصحاب الضياع؛ فهو سبب اجتماعي واقتصادي قبل أن يكون دينيا – في رأينا – لأنه سوى بين الناس، وجعل في أموال أصحاب الأموال حقاً معلوماً للسائل والمحروم.

وكانت المسألة الاقتصادية والاجتماعية هي أول أسباب الردة فإن المرتدين لم يكونوا يحيدون أو يميلون قيد شعرة إلى عبادة الأصنام التي بان لهم سخفها، وإنما أرادوا الامتناع عن السجود في الصلاة وعن دفع الزكاة..

وهب سادة قريش يناصبون مُحَمَّداً العداء ويكيدون له بليل، ويلفقون له التهم، ويدبرون المؤتمرات لاغتياله ويرصدون الجوائز والأموال الطائلة للقضاء عليه، ويتعقبونه وصاحبه الصديق إلى غار ثور، ولولا العصبية القبلية ذاتها والتزام بني هاشم بحماية رجلهم برغم مخالفته لمعتقدات آبائهم وهم أيضاً من قريش لقتل مُحَمَّد في بواكير الدعوة، ولأصبح الإسلام الآن في خبر كان.

كان نظام الطبقات السائد حين ذاك – إذن – هو أول الآفات التي حاربها الإسلام لأنها كانت أقوى الآفات وأضرها بالمجتمع وأشدها فتكاً وأعظمها فاعلية في إهدار آدمية ابن آدم.

وبقدر ما كان الضر والأذى من جانب كفار قريش كانت قوة الوسائل الكلامية وأسلحة البلاغة التي استخدمها القرآن ورددتها الأحاديث النبوية مرات دفاعاً عن آدمية الإنسان وكرامته وقدره.. وتمكينا للدين الجديد ونشره لتسود العدالة وتعود المبادئ الأولى.. أي مبادئ إبراهيم الخليل والأنبياء الآخرين الذين جاءوا لصلاح البشرية..

كانت هذه حال العرب في شبه الجزيرة العربية عندما أشرق على الناس من ظلام الجهل والانحطاط سنا مُحَمَّد.. كان هذا شأن الرق في شبه الجزيرة العربية وشأنه في سائر بلاد العالم لذلك العهد كالإغريق ورومية وفارس كما كان الرق سائداً بين الروس والفرنسيين والنمساويين في العصور الحديثة عصور القياصرة والملوك الذين كانوا إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة..

فكانت الغارات التي تشنها القبائل العربية بعضها على بعض، كذلك القرصنة والاعتداء على قوافل التجار تزودهم بالسبي والأسارى، كانت هذه هي ديدن ذلك العصر والسمة المميزة له..

وكان العرب يتمتعون بالرقيق من جميع الأجناس كأبي لؤلؤة فيروز المجوسي غلام المغيرة بن شعبة وقاتل عمر بن الخطاب، وصهيب الرومي

وبلال الحبشي، وكانت النعرة العربية القائلة بأن العرب هم العنصر الممتاز تجعل البون شاسعاً، وتوسع هوة الخلف بين السادة وعبيدهم من الأجانب، فكانت معاملتهم إياهم أسوأ من معاملتهم للعبيد العرب وإن كان الاستعباد وسوء المعاملة بالغاً الذروة في الحالتين فإن الجمع هو الجوع والذل هو الذل مهما زاد أو قل..

كانت العصبية العربية – إذن – بالغة المنتهى عند الجاهليين تماماً مثلما كان اليونان والرومان يفعلون، إذ يسمون الشعوب من غير جنسهم "البرابرة" Barbari ويعاملونهم على هذا الاعتبار.. وكانت الأعمال الشاقة من حرث وزراعة وحصاد ورعي لا يقوم بها غير الأرقاء المستضعفين، كما كان هؤلاء يستغلون أسوأ استغلال وأقبحه بما يجافي روح الكرامة والشرف، فكان بعض السادة يدفعون فتياتهم إلى البغاء للكسب المادي، وجمع المال بأيديهن لمصلحة هؤلاء السادة وفي ذلك نزلت الآية "ولا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا" (سورة النور– آية ٣٣) تنديداً بهذا الفعل القبيح وكانت هذه العادة من أسوأ مخلفات هذا العهد.

وكان إذا غضب سيد على عبده يعذبه دون وازع من قانون أو رادع من ضمير، كما كان يفعل الإقطاعي في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية الكبرى، يسجن تابعه في "الباستيل" ليلاقي الذل والهوان من الجوع والعري والجلد بالسياط والركل بالحذاء.

وفي سائر بلاد أوربا أيضاً كانت هذه السياسة الخرقاء قائمة في روسيا والنمسا والمجر وألمانيا وإن كانت في الأخيرة بشكل أخف.

ولن أنسى أبداً في ذلك المعرض ما كان يقع في مصر في عصر الأسرة التي طردناها عام ١٩٥٢. كان الإقطاعي يتحكم في لاحيه ونسائهم وبناتهم ويستبيح حرماتهم أو يطرد الفلاح وعائلته من الأرض مشردين حزناً لا يجدون ما ينفقون، وكان ابن الإقطاعي "سعادة البك أو سعادة الباشا" يأمر زبانيته بإحضار "مائسة" أو "ناعسة" من الأبواب الخلفية للقصر ولكن.. كفى!. والحمد لله الذي أذهب عنا الحزن.

وكان الفلاح عندنا هنا في عصر النور وفي القرن العشرين الذي امتلك فيه الفلاح الأمريكي جهاز مذياع وسيارة و"فيلا" كان فلاحنا يأكل ليشتغل ويشتغل ويكدح ويتفصد جبينه عرقاً ليروي أرض سيده ويجمع محصول القطن ذهباً يضعه بيده في خزائن مولاه وليس له ولا أسرته إلا رنين المال ووسوسة الحلي. لا يكاد يشرب الماء إلا حبات من العرق نضح بها جبينه. نعم كان الفلاح يضع ماله وعرق جبينه في بنك روتشيلد اليهودي في إنجلترا باسم سيده، وفي مصارف اليهود في الخارج أيضاً. وإذا مات حزن عليه سيده لا عطفاً عليه لأنه عرفه وعاشره وحتى ولو كانت عشرة السيد للعبد، بل كان يحزن عليه كما يحزن على جاموسة أو حمار يخدمه ويقوم بحاجاته ولأنه حرم يداً عاملة.. ولكن كفى.. والحمد لله الذي أذهب عنا الحزن.

مثل هذه الحال كانت سائدة على صورة أبشع طبعاً في الجاهلية..

وكان أول ما دعا إليه الإسلام بعد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر هو تحرير العبيد ومعاملتهم بالحسنى إذ بقوا على هذا النظام لسبب أو لآخر بحيث لم يبق من الرق إلا اسمه. فالقرآن يحفل بمئات الآيات الداعية إلى المساواة بين الناس لأنهم من تراب من الأب الأول الوحيد الذي خلقه الله من تراب ثم قال له "كن فكان". وكان مُحَمَّد عليه السلام يصدر في كل أقواله وأفعاله عن هذا المبدأ القويم.. لأن كل ما كان يقع عليه نظره كان شاهداً برسوخ هذا النظام وتمكنه من حياة العرب أينما سار وحيثما ولى وجهه..

عندي أنه لا الاعتقاد في إله واحد وبأن مُحَمَّداً عبده ورسوله ولا البعث وحساب الآخرة كان هو السبب الأول في إعراض العرب عن الدين الجديد والصد عن سبيله، ذلك لأن العرب أنفسهم كانوا قبل الإسلام يؤمنون فعلاً بوجود إله واحد وكان يطلقون عليه اسم "الله" وقد ثبت من القرآن ذاته في قوله تعالى على لسان الكفار "في سورة الزمر" (مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى) ومن قول أحد الشعراء وهو زهير ابن أبي سلمى من أصحاب المعلقات وكان معظماً في قومه وكان الشعر عند الجاهليين مرآة الحياة العربية.. قال:

فــلا تكــتمن الله مــا فــي نفوســكم ليخفــى ومهمــا يكــتم الله يعلــم

يــؤخر فيوضــع فــي كتــاب فيــدخر ليــوم حســاب أو يجعــل فيــنقم

وقد مات زهير قبل البعثة النبوية بعام فهو لم يدرك الإسلام ولم يتأثر بما جاء فيه فيقال أنه نقل عن مُحَمَّد.. وليس هناك شاهد أو دليل أعظم من هذا الاعتبار من هذه الآية وهذين البيتين..

كان العرب– إذن– يؤمنون بوجود إله واحد، ويعتقدون في البعث والحساب وكانوا إذا قدموا القرابين يقدمونها لله عن طريق أصنامهم..

ولكن أشد ما كان يسخط العرب – في رأيي – هو الجانبان الاقتصادي والاجتماعي وتحرير العبيد والمساواة بين السادة وتابعيهم وأيضاً نظام الزكاة..

وقد كان أول أسباب الردة بعد موت النبي نظام الزكاة بل إن معظم العرب الذين أسلموا اشترطوا على أبي بكر بقاءهم على دين الإسلام بشرط إلغاء هذا الركن الذي يفرض عليهم النزول عن جزء من مالهم بقانون سماوي[٨].

فلم يكن السادة الذين ورثوا حقاً لهم كابراً من كابر من قديم الزمن ويستمتعون بالسيادة والإرث والإشراف على قطاع كبير من الناس لم يكن من السهل أن ينزلوا عن هذه الحقوق القديمة فالإسلام إن لم يحرمهم التملك فإنه حال بينهم وبين جمع المال وكنزه..

"وتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًا وتُحِبُّونَ المَالَ حُبًا جَمًا"...

---

(٨) "أبو بكر والوحدة" للمؤلف.

وأشار القرآن أكثر من مرة إلى عذاب جامعي المال الذين يعيشون في رغد وبلهنية والشعب كله يتضور جوعاً، قال تعالى:

"والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ ولا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"..

ولا ريب أن كنز المال هو العدو الأول للاشتراكية التي نادى بها الإسلام على الصورة التي نوهنا بها آنفاً، وهو استمرار الاستعباد والسيادة، لأن إنفاق المال في سبيل الله معناه عمل مشاريع تحرير العبيد وهذا ما لم يكن العرب يسيغونه ولا يقبلونه البتة أي السراة والثراة منهم..

أما عبادة الأصنام فلم تظفر باحترام كبير من العرب وبصيحة واحدة من مُحَمَّد خرت على وجوهها وانتثرت شذر مذر وراحت في ذمة التاريخ..

العبرة – إذن – في الإيمان بالمساواة أي الديمقراطية في هذا المقام. لقد جاء مُحَمَّد للقضاء على الإقطاع ورأس المال المستغل وعبودية الإنسان من أخ له لا يفضله بشيء في الخلقة ولا في عدد ما قضاه في بطن أمه.. وهذا لم يكن مقبولاً عندهم..

كانت الديمقراطية – إذن – هي السبب الأول في معارضة الدين الجديد ومحاربة صاحبه بل التفاني في هذه المحاربة والتفنن فيها بكل الوسائل الممكنة، بالفروسية التي اشتهر بها العرب من قديم الزمان والدجل والغش والبلاغة، وبالسلاح وتجييش الجيوش وبإغداق المال وغير ذلك من

أساليب الإغراء وجمع الأعوان، لأن مُحَمَّداً يريد أن يسوى بين الناس كافة وبذلك سوف يسلب هؤلاء النبلاء حق السيطرة والسلطان والدوس بأقدامهم على بني جلدتهم وأنى يقبل أمثال أبي جهل وأبي سفيان أن يقفوا على قدم المساواة مع عبيدهم الذين كانوا بالأمس ولا يزالون يبيعونهم بيع السائمة.. مع الأرض التي يشتغلون عليها غير أُجراء بل السخرة.

بمعنى أن الملأ من قريش كانوا يحاربون الاشتراكية والديمقراطية الجديدة.. كذلك حاربها الإنسان العادي لسبب الزكاة وسيراً في ركاب سادته أحياناً..

جاء مُحَمَّد بمبدأ الديمقراطية – ديمقراطية المساواة – ودعا إليه بكل قوة بالقرآن الذي نزل عليه من لدن حكيم خبير، وبالأحاديث التي أوردنا طرفاً منها في صدر هذا الفصل، ووقف مُحَمَّد النفس والنفيس وكل ما يملك من وسائل الحرب والإقناع وذهب إلى ميدان الجهاد متذرعاً بإيمانه بالله وإيمانه بالعقل الإنساني المدني بطبعه الذي سوف يهتدي ويهدي صاحبه بعد أن يشرح مُحَمَّد للناس ويوضح تعاليم الدين الجديد ويعقد الندوات، وبالتطبيق العملي للمبادئ القويمة ونشر العدل والمساواة في شبه الجزيرة العربية.. وزحفت المساواة في كل مكان من العالم بعد ذلك شمالاً على أرض رومية وشرقاً في أرض العجم، ثم غرباً في مصرنا العزيزة حتى غمرت مياهها تلك الصحاري القاحلة.. المجردة من المثل ومن الأخلاق ومن النظام، الملوثة بالرذيلة والمدنسة بأقدام المستعمرين وأذنابهم من الخونة والعملاء...

المسئولية:

مضى عهد النوم يا خديجة.. أمانة.. إيمان.. قوة.. عزيمة.. استعداد وشجاعة.. كفاح.. وسهر.. مسئولية عن العالم كله.. "ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" يا مُحَمَّد للمجتمع الإنساني تهزه من جديد وتطهره من كل فاسد انثال عليه عبر التاريخ وفي عهود الجهل من العقول النخرة والقلوب الصادئة..

"مضى عهد النوم يا خديجة".. كليمات أفضى بها رجل حر مستنير إلى زوجه الوفية وشريكة حياته ومناط أمله وموضع نجواه وساعده الأيمن في كفاحه المرير في سبيل أعظم وأفضل دعوة في التاريخ..

خديجة الشريفة المؤمنة.. الوسادة اللينة يتكئ عليها كلما عاد من خارج الدار بأذى من قريش من كلمة موجعة أو جرح غائر أو عفرة من تراب أو أي أثر لجريمة أخرى من جرائم الأوغاد..

نعم.. مضى عهد النوم يا خديجة.. لقد اخترت أنا لحمل الرسالة "يا خديجة" يا شريكة العمر وعلى أن أحملها باليمين حمل الصادق الأمين لأكون النذير من بين يدي عذاب أليم حتى أرحم الملايين من ذل العبودية واضع لهم أسس العدالة والاشتراكية..

وهكذا بدأ مُحَمَّد القيام بأكبر ثورة في التاريخ.. ثورة على المهانة.. ثورة على التحكم.. ثورة على العذاب والألم البراح.. ثورة في وجه الطغاة.. ثورة

ضد الإقطاع والرجعية ورأس المال المستغل حتى تطهر الجزيرة العربية من وصمة الامتهان لكرامة الإنسان من عذاب الفوارق الاجتماعية الضخمة فبعض الناس كالنمال وبعضهم فوق قمم الجبال.. ثورة من أجل التعايش السلمي ونبذ الحروب إلا للضرورة التي يحتمها انتزاع الحق بالقوة من بين براثن التنين.. فأثر العبيد لن يفك بالحسنى بل بحد السيف لأن القيد متين مستحكم قد شدت عليه أيدي السادة لتؤكده وتشدده، فلن يفك بالرجاء والاستعطاف لأن من دونه قوة هائلة ولا يفل الحديد إلا الحديد.. ثورة ترد للإنسان اعتباره وتعيد إليه كرامته التي سلبه إياها البطش والرجعية وغرور الإنسان وطمعه..

وإذا كان مُحَمَّد قد قام بالثورة داعياً إلى المساواة بكلامه وحديثه وضرب الأمثلة للسادة والساسة فليكونن هو نفسه – مُحَمَّد الداعية وصاحب الرسالة – المثال والقدرة لهؤلاء كلهم، يقرن القول بالعمل فلا يقول فقط ليكون نظرياً كالشعراء ولا يعمل فقط فينحصر عمله فيه وهو لا يتعداه إلى من سيتولون الأمر من بعده ويحملون على أكتافهم حمولة هذه الأمة..

ولتكون الفائدة أعم وأشمل.. إذن لا بد ولا بدع أن يعمل مُحَمَّد وأن يقول.. معاً! يعمل ليكون القدوة ويقول ليضع القواعد ويؤسس مجد أمة..

ديمقراطيته بعامة:

فلا بدع – إذن – أن راح مُحَمَّد عليه السلام يدعو إلى المساواة بعمله وبكلامه ليكون هو نفسه القدوة الحسنة وليشرح صدر غيره من الحكام وأولي الأمر فيذيقهم حلاوة العدل وليريهم بالبرهان – أعني العرب كلهم – أنهم كانوا مخطئين عندما ينظرون أمامهم الآن وينظرون خلفهم فلا يؤمنون إذ يرون البون الشاسع بين حياة قائمة على الفوضى وحياة جديدة، جديدة في كل شيء قد اجتثت الجهل من رءوسهم وفتحت عيونهم على مدينة وحضارة جاء بها الدين الجديد طلباً لصلاحهم في دنياهم وآخرتهم وليشرح صدور من بقي على كفره وفي رأسه أثارة من عقل ليسلموا ويعتنقوا دين الحرية والعدل، وليشرح أيضاً صدور العبيد المحررين حتى يقوموا هم الآخرون بالدعوة فينفجروا في الشعب بالأفكار الإنسانية والتقدمية في كل مكان فيكونوا كالخلية تنقسم وكل قسم ينقسم حتى ينتشر الحق بسرعة البرق فيعم البقاع..

وحتى تنعكس الشمس على قطع الماس فتضيء بلآلائها ظلام الجهل، فإن اهتمام النبي بالمساواة بين الأجناس والعناصر البشرية في جميع أنحاء العالم كان مبعثراً في كل أحاديثه تقريباً، فلا تفرقة ولا تمييز عنصرياً بين أبيض وأسود وأصفر، بين غني وفقير، بين عربي وأعجمي، وليس في الناس عظيم ولا حقير لأنهم كلهم أبناء رجل واحد، انحدروا من صلبه يحسون الحرب والقر والخير والضر ووخز الأبر، ويشعرون بالحزن لموت قريب أو صديق ويمتعضون ويتأففون إذا ما رأوا شيئاً يؤذي نواظرهم من جيفة نتنة

أو منظر شيء قذر، ويبهرهم ضوء الشمس وتخنقهم الظلمة ويهربون من الوحوش، ويأكلون ويشربون ويولدون ويمشون على رجلين بعد أن كان الواحد منهم يزحف أو يمشي على أربع وينام الواحد ويصحو ويعمر لبني جلدته، يغشاه هادم اللذات ومفرق الجماعات إن عاجلاً أو آجلاً، ويمرض كذلك وإذا وقع عليه الشيء أصابه على حسب ما كانت قوة أو ضعف ذلك الشيء الساقط، إنما أكرمهم عند الله أتقاهم وأفضلهم العامل الساعي في سبيل المعاش والعادي..

وهكذا، ولعل أشهر حديث ورد في مبدأ المساواة بين الناس من جميع الأجناس قوله عليه السلام: "ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى" وهذا غاية ما بلغه الإنسان من ديمقراطية وسماحة، فقد جاء قوله عليه السلام صريحاً في أن العرب – ومُحَمَّد منهم – لم يكونوا بأفضل ولا أرفع قدراً من غيرهم من الشعوب الأخرى، ولا أسمى حتى ولو سموا بالجنس السامي..

ومما يزيد المعنى وضوحاً ويؤكده ويبين عن صدق النية في إصدار هذا الحديث أنه صادر من سيد بل من زعيم العنصر القوي الذي ينتمي إليه هو بمعنى أن الداعي نفسه لم يطالب بعد إطلاقه هذا الحديث بحق لأمته ولا لشخصه هو، لأنه لم يكن هو نفسه من المستذلين وبمعنى أنه يضع مبدأ عام ولو على حساب الفئة، بل الجنس الذي هو منه والذي ينتمي إليه، ولو صدرت تلك الدعوة، دعوة المساواة من غير مُحَمَّد كبلال بن رباح

الحبشي مثلاً أو صهيب الرومي من الأرقاء لما كانت عظيمة الأهمية ولا كان لها عظم الصدور من سيد وزعيم في قومه..

ويباري هذا الحديث في إبراز قوة هذه الدعوة وما قاله الرسول عليه السلام في مناسبة أخرى: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه ربيبة"، فبهذا الحديث زرع مُحَمَّد مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص في بيئة صحراوية أجدبت من الحق ومن الخلق ولم ينبت فيها إلا أشواك الظلم..

إنه يعمل على إزالة العنجهية والعنصرية والتفاخر بالأنساب الذي كان هو شيمة العرب مما كان الأصل في إزكاء الشحناء والحروب في الماضي بين القبائل بعضها مع بعض وظهور طائفة الشعراء المداحين الذين كانوا يبيعون الأنساب بثمن بخس دراهم معدودة..

أفبعد هذه ديمقراطية حكم، وديمقراطية مساواة؟. لقد كان تولي الحكم أو رياسة القبيلة مقصوراً على طائفة من الأشراف أو محصوراً في بيوتات بعينها، أما الآن فقد رأينا النبي يبعث بجيش إلى مؤتة تحت أمرة ملاه وأبنه بالتبني زيد بن حارثة ثم أعيد جيشاً آخر بعد مصرع زيد تحت قيادة أسامة بن زيد وكان حدثاً في العشرين من عمره، وذهب الجيش ليحارب وفيه كثير من وجوه قريش وسادتها وذلك في عهد أبي بكر الصديق..

وقد تم التطبيق العملي لهذا المبدأ حين ذاك وبعد ذلك فها هو ذا من كانت أمه من الجواري وهو الخليفة المأمون يتولى خلافة المسلمين، ومن كانت أمه من النصارى يتولاها بالأندلس وهو عبد الرحمن الثالث، وبعد ذلك تولت الحكم في مصر امرأة وهي شجرة الدر وكانت جارية من المماليك..

ومن أعظم ما أصدره مُحَمَّد من أحاديث في مبدأ المساواة قوله: "الناس سواسية كأسنان المشط" فكما تتساوى أسنان المشط فلا تشذ سن عن أخواتها الأخريات، كذلك يتساوى الناس، فانظر كيف يكون الناس في ظلال الإسلام..

وليلاحظ القارئ هنا بلاغة التشبيه، فقد كان مُحَمَّد أديباً وهناك ناحية تسترعي النظر وهي جمال التشبيه في تراص الناس كأسنان المشط، فأسنان المشط مرتبة ترتيباً منظماً فالنبي عليه الصلاة والسلام قد جمع في عبارة واحدة بين المساواة والنظام والترابط لأن أسنان المشط قد وضعت بنظام مرتب وهي لم تشذ سن منها ثم أنها تخرج من أصل واحد وترتبط بأصل واحد آية الاتحاد، والأصل في المشط هنا هو قاعدته والأصل في الناس آدم، وليس أوضح في الدلالة على المقصود من التشبيه من أنه عليه السلام يذكر المشبه والمشبه به على السواء كذلك وجه الشبه وهو "سواسية".

روي أن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص دخل المسجد ليصلي في عهد الرسول فوجد فيه سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلالاً الحبشي وسالماً مولى أبي حذيفة مجتمعين في حلقة يتحدثون فدخل سعد في الصلاة وبينما هو في صلاته سمع أعرابياً يقول لهم ساخراً:

"تحلقتم يا معشر العلجة كأنكم من الأوس والخزرج".. العلج بوزن العجل الواحد من كفار العجم والجمع علوج وأعلاج وعلجة بوزن عنبة.

فهال سعداً ما سمع من الأعرابي فعجل في صلاته حتى إذا انتهى منها أسرع إلى الأعرابي وأخذ بتلابيبه وهو يعنفه ويقول: "يا عدو نفسه.. تقول هذا لأصحاب رسول الله ﷺ!" ثم سحبه وذهب به إلى النبي وأخبره بما قال للصحابة، فعظم ذلك على النبي فجمع المسلمين وخطبهم قائلاً بلسان صريح مبين سهل مؤثر:

"يأيها الناس إن الرب واحد والدين واحد والأب واحد، ومن أسرع به عمله، لم يبطئ به نسبه، ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه ومن دخل في هذا الدين فهو من العرب".

ويجب أن نقف وقفة قصيرة هنا نشرح هذه الخطبة..

إن الله الذي نعبده جميعاً هو لنا جميعاً وربنا جميعاً وهو خالقنا وبيده حياتنا ومماتنا ومعاشنا ومعادنا.. سعادتنا وتعسنا لا فرق بين كافة فليس الدين مقصوراً على زيد أو عمرو وليس مكرماً لهذا لأنه عربي دون غيره

من سائر البشر أو مهيناً لهذا لأنه غير عربي، وقواعد هذا الدين التي جاء بها تسري على الجميع بلا تفرقة أي بالسوية والقسطاس، وتلك القواعد تنسحب على الكل فهم مقيدون بها ممتعون بخيرها مسئولون عن أدائها كما ومعنى بلا إيثار ولا محاباة. والأب هو آدم أب واحد فليس هنالك آباء ممتازون أو متميزون وآباء حقراء فمن انحدروا من صلب رجل واحد كانوا سواسية كأسنان المشط.

ثم قال عليه السلام: "ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه" أي أن العمل لا النسب، هو الأصل في الكرامة والجاه والشرف الإنساني وأن الإنسان لو كان من بيئة مغمورة غير مشهورة أسرع به عمله ورفعه إلى مكانته اللائقة إن كان ذا عمل صالح فلم يؤثر نسبه على مكانته بعمله.

والعكس صحيح فمن كان من طبقة السراة وعمل عملاً طالحاً – غير صالح – فأبطأ به عمله ذلك وأنزله إلى المنزلة الدون، لم ينفعه نسبه وعراقة أصله وكرم محتده ونجاره شفاعة في صونه من المهانة بما جنت يداه..

ومن هذا الحديث الذي يحارب العنصرية أعنف محاربة ويرد للإنسان كرامته نستخلص كذلك معنى جليلاً: ألا وهو الحث على العمل والكفاح، والمقصود بما هو معروف عن حكمة النبي ودقته المتناهية في إطلاق أحاديثه أن العمل الذي أشار إليه إنما هو العمل الدنيوي، كذلك العبادة وطاعة الرب.

ثم انظر إلى حلاوة القول وطلاوته والسلاسة والرقة والدقة في الطباق الذي ورد في قوله عليه السلام "أسرع وأبطأ".. وبضدها تتميز الأشياء: مساواة، وعدل، وعمل وبلاغة..

وفي حديث آخر له قوله "كل من تكلم العربية فهو عربي"، وهذا غني عن كل بيان وهو حديث لا يحتاج من شرح أكثر من مجرد ذكره..

مرحى ومرحباً بالمساواة، وبالعدالة والنظام.. حبا وكرامة.. لقد تبدلت الحياة الاجتماعية إيما تبدل وحدث الانقلاب الهائل الذي لم يسبق له مثيل في عالم الثورات الاجتماعية ولم يكن ليستغرق أكثر من سنوات قليلة من عمر الزمان؛ لقد أصبح الأرقاء سادة وبات عربياً كل من أظله هذا الدين أو تكلم بلغة القرآن.. وبات الأرقاء ومن حقهم عقد الندوات للنظر في أمور دينهم ودنياهم فهم من الأشراف وكل من اتقى الله فهو من الأشراف حتى ولو كان عبداً حبشياً كأن رأسه زبيبة.. اللهم إن هذه لهي الديمقراطية بأجلى مظاهرها فلقد أودى النبي بالعنجهية العربية بعد أن سوى بين العرب وغيرهم من الشعوب الأخرى برغم اختلاف الجنس واللغة والعادات والتقاليد.

وتشير هذه الخطبة كذلك إلى حادثة بعينها اجتمع فيها أكثر من جنس فكانت المناسبة أقوى والنهزة أسنح؛ فهؤلاء الأربعة المجتمعون كانوا يمثلون ثلاثة شعوب كانت العرب تعتبرها أقل منها مرتبة بل تعدها في المرتبة الدون، وذلك بدافع العصبية الجنسية والعنصرية المقيتة، وأنها لا

يليق بها ولا يحمل إلا أن تحمل خدماً وموالي، فهم سلمان وسالم "وهما فارسيان" وصهيب الرومي وبلال الحبشي.. وكانت هذه الحادثة فرصة سانحة لإقرار وتأكيد هذا المبدأ الجديد بالمساواة بين شعوب الأرض جميعاً..

لقد أصبحوا كلهم عرباً بنص حديث النبي ﷺ، لهم ما للعرب من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات، وهذا النص قد وضع به النبي مبدأ إنسانياً كريماً يزيل الفوارق ويلم الشمل ويجمع شتات الشعوب، ويؤلف بين القلوب ويؤاخي بين الأعداء، وذلك لأن التمييز بين الأجناس المختلفة وربط البعض بالبعض الآخر برباط الذل والعبودية بحكم العصبية من شأنه دوام نظام السيادة واستمرار الحقد يقر في النفوس فتغلي الصدور بالغل والكراهية فلا يكون سلام ما دام ثمة جنس يحقر جنساً زراية به فينزله إلى ما دون مستوى الآدمية إلى مستوى العجماوات كما كانت الحال في العالم كله قبل أن يأتي النذير.

وهذا المبدأ الذي وضعه مُحَمَّد إيحاء من ربه، ودعا إليه بكل قوة تارة بالقول وطوراً بالعمل والمسلك يدحض زعم الانفصاليين في العصر الحديث الذين ينكرون على مصر زعامة العالم العربي لحاجة في نفوسهم فيقولون أننا لسنا عرباً، فقد طلع هؤلاء على الناس بحجة واهية وبدعة مستحدثة، واخترعوا ما أسموه بالفرعونية لمحاربة قيام الوحدة العربية بزعامة مصر مدعين أن المصريين ليسوا عرباً خلصاً وأنهم فراعنة أصلاً، وعلى ذلك ليسوا حقيقين بالمركز القيادي للبلاد العربية.

تلك دعواهم.. تبت يداهم.. وإنا لنسوق لهم هذا الحديث بأن مصر خليق بها تلك الزعامة للعالم العربي بلا منازع مشيرين إلى أن كل هزة أو نكسة أصابت مصر أصابت العروبة كلها في الصميم، وكل نازلة نزلت بنا تردد صداها في جميع أنحاء البلاد العربية، فارتجت لها مثلما كان يحدث لنا بدون أي خلاف؛ فنحن عرب وخليقون بزعامة العرب بلا منازع..

أولاً: لأن مصر تتكلم العربية وقد قال عليه السلام: "كل من تكلم العربية فهو عربي". ثم كان من بيننا نحن شعراء مجيدون كان على رأسهم أحمد شوقي منتزع تاج الشعر من دولة بني العباس، كذلك حافظ إبراهيم الشاعر الفحل الذي أتى بالمعاني الإنسانية المستحدثة، وكان في الرعيل الأول من شعراء العربية. كذلك قام بيننا – نحن المصريون العرب – زعماء الشرق العربي وكلهم خطباء مصاقع بالعربية، وقفوا على قدم المساواة مع فحول الخطابة في العالم كمصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم.. وكان ابن منظور المصري واضع أكبر معجم حاو لمفردات اللغة العربية مصرياً، ولا تنس الشيخ مُحَمَّد عبده المسلم المجدد الذي حرر الإسلام من سبة الجمود والتأخر ودلل على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان وأنه يؤيد العلم ويحض عليه..

ثانياً: إننا مسلمون ودين الدولة الرسمي هو الإسلام الذي جاء به مُحَمَّد العربي من عند الله..

وثالثاً: قد تم تعريب المصريين بالتزاوج والمصاهرة مع العرب من مئات السنين بعد فتح العرب مصر على يد عمرو بن العاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد الهجرة في عام ١٨هـ وتلك المدة كافية لأن تفعل أفاعيلها في الصبغ العربي للشعب المصري، فكان التعريب بالزواج بجانب اللغة والدين مع جعل ملامحنا وحضارتنا عربية، كان ذلك أبين دليل على أننا عرب وحقيقيون بزعامة العروبة..

ورابعاً: أن مصر هي التي دفعت المعتدين عن البلاد العربية وردتهم على أعقابهم خاسرين وقد وقع العبء الأكبر في الحروب الصليبية على أكتافنا نحن المصريين العرب، بزعامة البطل الصنديد صلاح الدين الأيوبي ومن جاء عبده من الزعماء المصريين. وانتقلت الخلافة الإسلامية إلينا بعد أن قضي عليها في عصر العباسيين، وبعد فساد الأحوال في بغداد العاصمة العباسية الكبرى.. ثم إننا نحن الذين قهرنا التتار، بقيادة "قطز" في موقعة "عين جالوت" سنة ١٢٦٠ ميلادية ونحن الذين أسرنا لويس التاسع بالمنصورة قبل ذلك بعشر سنوات..

وكانت كل انتكاسة تصيب مصر تنزل بالشعب العربي كله، وعندما أراد الطاغية نابليون أن يغزو الشرق العربي وأن ينشئ إمبراطورية فرنسية فيه غزا مصر أولاً ليقينه أنها هي الصخرة الشماء التي عليها تتحطم نزوات وغزوات المستعمرين وأنها هي مفتاحه– أي نابليون – إلى الشرق وأن هزيمتها ستلقي الرعب في قلوب سائر العرب الآخرين..

ثم إننا– خامساً– عندنا الآن أكبر مؤسسة دينية عربية في العالم العربي الإسلامي ألا وهي الأزهر الشريف وجامعته التي يفد إليها الطلاب من جميع أنحاء العالم، وفي بلادنا أكبر وأشهر المساجد كمسجد الحسين ﷺ وهو حفيد النبي ومسجد عمرو، كذا المعاهد والمكتبات العربية وعندنا خمس جامعات عربية عالمية كبرى..

ثم إننا أخيراً وليس آخراً أكثر البلاد العربية تعداداً للسكان..

ثم كانت أحاديث الرسول هي الفيصل في عروبتنا التي لا ينكرها إلا جاهل أو عميل.. وهل عندنا الآن شيء غير عربي: دين ولغة وعادات وملامح عربية، ومؤسسات إعلام عربية، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً.. بلسان عربي مبين..

أفبعد هذا يزعم دعي أو أفاق أننا لسنا بعرب، ولا يحق لنا أن ننهض بزعامة الوحدة؟..

إلا إن كان فينا شيء يحول بيننا وبين زعامة العرب فليبينوه صراحة إن كانوا فاعلين..

تراب.. فقط!:

وقال عليه السلام في تحريم الرق والعبودية مشيراً إلى أننا من أصل واحد (متساوون) ومؤكداً قوله تعالى: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ".. وقال عليه السلام: "كلكم لآدم وآدم من تراب".. فليس لعربي– إذن–

أن يستذل أخاه أو يستغله أو يتخذه مطية يصل بها إلى مأربه عربياً كان أو غير عربي، ما دمنا جميعاً قد نسلنا من أب واحد ومن أصل واحد هو التراب فإن بعضنا لم يخلق من تراب وبعضنا لم يخلق من تبر وبعضنا من طين وبعضنا الثاني من خزف، وبعضنا من حمأ مسنون وبعضنا من در مكنون.. وأن هناك فوق كل شيء مسألة جديرة بالنظر والبحث والتقصي لدحض فرية الشيوعية التي تقول:

"لو كان الإسلام صالحاً لكل عصر– كما يقول دعاته– لما أباح الرق وإن إباحته للرق لدليل قاطع على أن الإسلام قد جاء لفترة محدودة، وأنه أدى مهمته وأصبح في ذمة التاريخ"[٩].

هذا ما يقوله الشيوعيون الملاحدة الذين سبوا جميع الأديان، وألغوها من بلادهم وأطلقوا عليها "أفيون الشعوب" أي "المخدر اللذيذ المهلك للأبدان والعقول" والذين قالوا من أربعة أعوام في عيد ميلاد المسيح عليه السلام والعالم كله، مسيحيين وغير مسيحيين يحتفلون بذكراه المجيدة – قالوا: "نحن لسنا في حاجة إلى المسيح وتعاليمه فإن لنا اقتصادنا الخاص نظاماً اقتصادياً متيناً".

وليس أبلغ في الرد على فرية هؤلاء الملحدين من أن الإسلام أباح الرق مما قاله المرحوم عبد الرحمن عزام أمين سر الجامعة العربية سابقاً في كتابه "الرسالة الخالدة"– ص٨٧ وما بعدها تحت عنوان: "أدب الحرب":

---

(٩) ص١٥٢ من كتاب "لا رق في الإسلام" لمؤلفه إبراهيم هاشم القلالي.

"أجازت الدعوة المحمدية الحرب في أضيق نطاق، كما تغاضت عن الرق لأنه كان أيضاً نظاماً عالمياً، وعملت تدريجياً على منع الحروب، ومنع الرق بأساليبها المختلفة وجعلت القاعدة العامة بالنسبة للأسير المن أو الفداء، فصار تشريعها العام بالنسبة للأسير مانعاً للرق وبالحث بجميع الوسائل على تحرير الرقيق وتخصيص سهم من الزكاة لفك الرقاب، وبالإحسان إليه وفقاً لآداب خاصة تستلزمها الشريعة ويستلزمها الورع. قاومت الدعوة المحمدية الرق مقاومة كانت بالتدريج أفعل في تهيئة الضمير البشري للقضاء عليه من المفاجأة بالتحريم البات".

ولنا – تأييدا لهذا الرأي – أن نذكر أنه لا يمكن بحال من الأحوال اجتثاث نظام عتيق تأصلت في العالم جذوره آلافاً من السنين في سنوات قليلة من عمر الزمن، فإن في ذلك مشقة إذ أنه عسير على النفوس، والنفوس كلفة بالتقليد، بل إنها دائماً أسيرة التقاليد والعادات، ولو حرم الإسلام الرق جبذة واحدة لما دخل في الإسلام كثير من أولئك الذين دخلوه طائعين لما فيه من مبادئ سامية، ونظم اجتماعية نافعة لعلاج المجتمع وعمارة الكون..

ودليلنا أكبر الدليل على سلامة هذه الطريقة هو تحريم الخمر، فقد جاء ذلك تدريجاً وقد يكون ترك الخمر أهون من ترك الرقيق لأن الرقيق له عمله النافع بمعنى أنه قوة بشرية عاملة، ولا بأس من استخدامه مع معاملته بالحسنى.. أما الخمر فهي مجرد جرعات فيها إثم كبير على لذاذتها عند شاربيها، فلا بأس إذن من الإبطاء فيه مع وضع صمام الأمن..

إنما كان الرق – في تلك الآونة – نظاماً عالمياً معمولاً به في جميع الأمم، وقد جاءت المسيحية فلم تحرمه، فلما جاء الإسلام أبقى عليه، لكنه في الوقت نفسه وضع له قيوداً وحدوداً، وأعطى الرقيق الفرصة للتحرر، وفتح لهم الباب على مصراعيه لإمكان التحرر، ويسر الخروج من الرق حتى لم يعد للرق غير اسمه، إنما كان الرقيق مباحاً في تلك الأيام في حالات منها الأسر في الحروب وما إلى ذلك..

ولعل إباحة الرق في الرحب الدينية الإسلامية كان الحافز عليه أن يقبل المشركون على الإسلام مخافة الاسترقاق، حتى إذا ألفوا الدين ووجدوا ما فيه من مزايا إنسانية كريمة للجنس البشري كافة استقر في قلوبهم فأصبح إسلامهم عن يقين واعتقاد راسخين..

كما أن من حق المسلم أن يعتبر المشرك تابعاً له لأنه أفضل منه بالهداية والتوفيق إلى إله واحد وذلك بنص الآية الكريمة "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" ولم يقل أغناكم ولا أعلاكم نسباً، ولكن ليس للسيد أن يعذب مولاه أو يحمله فوق ما يطيق..

ولقد أكد هذا المعنى وهو حرية الإنسان ووجوب الالتزام بها لأنها حق طبيعي لكل إنسان ما قاله عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص رضي الله عنهما في موسم الحج وقد ضرب ابن عمرو أحد المصريين لأنه سبقه. أعطى عمر المصري السوط وأمره أن يضرب ابن الوالي الذي تعالى عليه بقوله: "كيف تسبق ابن الأكرمين" وضربه بالسوط. ثم التفت عمر إلى

عمرو وقال له قولته الخالدة التي ظل يرددها التاريخ منذ تلك الآونة حتى اليوم: "متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟".

ولقد تجوز الدين قليلاً في مسألة تحرير الرقيق للأسباب التي ذكرناها، ولأن الرق نظام عالمي، وكانت اليهودية تبيحه، ونشأت المسيحية وهو مباح فلم تحرمه ولم تنظر إلى تحريمه في المستقبل كما مر.. وإنا لنجد فصل الخطاب في هذه المسألة في قوله ﷺ: "لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم"، فبهذا الحكم النبوي الكريم أصبح للرقيق من الكرامة والحياة الآمنة ما جعلهم ليسوا بأرقاء البتة..

وقد ورد ما يقرر تحرير العبيد في القرآن والحديث الكثير مما لا يجعل من الرق إلا اسمه فقط، بمعنى أن الرق في الإسلام كان يتم في أضيق الحدود وأنه وجدت للرقيق منافذ كثيرة يتنسم فيها عبير الحرية، ويتسنم مكانه في المجتمع الآدمي كالسيد ومنافذ يطل منها الدين بالرحمة على أهل الرق فيحررهم بالتدريج، بل ويجعلهم كمن ليسوا بأرقاء برغم أن كانت روح ذلك العصر تتطلب ذلك لشيوع هذا النوع من المعاملة الإنسانية في جميع أرجاء العالم..

فقد كان من آخر وصاياه عليه السلام قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى وصايته بالرقيق بأن أوصى عليه السلام "بالصلاة وما ملكت أيمانكم".

وجعل الله العتق كفارة عن كثير من الذنوب كالقتل الخطأ والحنث باليمين وما إلى ذلك من ضروب المخالفة، ولهذا أعطى فرصاً كثيرة لتحرير الأرقاء، كما مر..

قال تعالى في سورة البلد: "فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ ومَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ".

وقال عز من قائل: "لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ولَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ". المائدة.

وقال أيضاً: "ومَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ودِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ".

وقوله تعالى في هذه المناسبة: "رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ" فيه إغراء وحث لغير المسلم، على أن يدخل في دين الإسلام طمعاً في الحرية إذا سنحت فرصة.. تلك حكمة بالغة..

وأباح الله الزواج من الإماء وأيده وحض عليه، قال تعالى: "ولأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ولَوْ أَعْجَبَتْكُمْ".

هذا الهدي القرآني الذي حمل رسالته مُحَمَّد ودعا إليه وقرره ونادى به ووقف حياته وروحه لنشره كان هو الأساس في "ديمقراطية مُحَمَّد"، وكل ما ورد من آيات في هذا الاعتبار ينقلها مُحَمَّد عن ربه فهو منسوب إليه أيضاً، لأنه حامل الرسالة التي أخذها على عاتقيه أخذ القوى الأمين بعد أن كلف بها تكليفاً وهو مبلغه والنذير فهو لا يخرج عما قصدناه من وضع هذا الكتاب عن "ديمقوقراطية مُحَمَّد" ذلك لأن هذه الآيات بل القرآن كله هو الذي بنى أخلاق مُحَمَّد وسلوكه، وهو الذي سيره ووجهه في دعوته إلى الدين الجديد والحياة الديمقراطية الاجتماعية الجديدة. وهناك من أقوال النبي فوق ذلك الشيء الكثير من الأحاديث الآمرة بالرفق بالعبيد وإفساح المجال لتحريرهم وذلك في أوسع نطاق..

ونهى ﷺ فوق وصاياه السابقة في آخر حياته، نهى عن الفخر والتعالي على ما ملكت اليمين بما يشعر المملوك بالذلة والامتهان.. نهى المسلمين عن أن يذكر أحدهم ما عنده من العبيد أو الإماء بقوله "عبدي وأمتي" وإنما أمرهم أن يقولوا "فتاي وفتاتي" كما يذكر المسلم أبناءه وبناته..

وهذا يؤيد الاتجاه المعاصر هنا في الجمهورية العربية المتحدة ألا نذكر الخدم باسم "الخادم" أو "الخادمة" بل نسميهم "الشغال" و"الشغالة" ترفيعاً لهم عن الوصمة التي لحقت بمفهوم معنى الخدمة وشاعت منذ عرفت هذه الكلمة من أن الخدمة ذل ووضاعة وسوء خلق وخيانة وعدم أمانة..

وأبعد من هذا في باب ديمقراطية مُحَمَّد وحثه على المساواة وحسن المعاملة بعامة إشارة إلى أن الناس كلهم لآدم الذي خلق من تراب قوله ﷺ: "أطعموا الجائع وفكوا العاني".. أي وأطلقوا العاني أي الأسير من أساره..

بل إن أبعد من هذا في مكنون الديمقراطية – المساواة – قوله عليه الصلاة والسلام في مناسبة أخرى: "أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، وأعتقها وتزوجها فله أجران".

وفي هذا الحديث فوق مناداته بالمساواة ومحاربته التفرقة بين البشر سمة أخرى من سمات الحضارة، ألا وهي الحث على تعليم البنات حتى الإماء منهن فما بالك بتعليم غيرهم ممن لسن بإماء؟. وذلك للنهوض بالجنس البشري كافة فإنه عليه السلام لم يقل "إيما رجل من العرب" وإنما عمم الرسول في حديثه، ولم يخصص جنساً دون جنس، ولم يؤثر شعباً على شعب، ولم يلزم جنساً أو شعباً بالتعليم دون جنس أو شعب آخر.

لهذا كان الرسول يدعو إلى المساواة، ويندد باستعباد الإنسان لأخيه الإنسان ويأمر بمعاملة الرقيق بالحسنى وفك أسرهم ما توفرت الشروط لذلك، ووقع عليه السلام القواعد للنهوض بالرقيق والإحسان إليهم وتحريرهم كما ورد في هذا المعنى من الآيات الكثير وما ورد في القرآن جاء به مُحَمَّد وما قاله مُحَمَّد نابع من القرآن وتابع لكلام الله ووحيه منبثق من الأصل الهادي سواء السبيل..

أما عن تسوية النبي بين الناس كافة فليس هذا موضع جدل فلن يجد المرء أبلغ من هذه المسألة من هذه الحكاية أو النادرة الآتي ذكرها، والتي تقف بين أحداث الإنسانية في التاريخ شامخة تطاول ما عداها في كل عصر.

وواضح من أخلاق مُحَمَّد ومن الأمانة التي كانت هي أول سماته أنه ينوي فعلاً ما يقول إن حدث فعلاً ما نوه به، ما لاحت بارقة، وأنه كان جاداً غاية الجد، وأنه كان على استعداد لتنفيذ ما قاله لا يقف في سبيله صلة رحم ولا أبوة ولا عواطف ولا يحول شيء بينه وبين ما قصد إليه وهو زعيم وحاكم ورئيس دولة قامت على العدل والمساواة..

وهذه هي الحكاية: سرقت امرأة من قريش بعد إسلامها، وبلغ الرسول أمرها فأشفقت قريش أن تقطع يدها فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا أسامة بن زيد ابنه بالتبني ليشفع فيها لدى رسول الله – وكان يشفعه – فلما فعل قال له ﷺ: "لا تكلمني يا أسامة، فإن الحدود إذا انتهت إلى فليس لها مترك، ولو كانت بنت مُحَمَّد فاطمة لقطعت يدها"[١٠].

وليس أوضح من هذا الحديث في الدلالة على العدالة التي سادت في ذلك العهد وعلى أن الرسول لم يكن ليتجوز أو يتساهل في الدفاع عن حقوق الناس مثقال حبة من خردل بالعفو عن السارقة ولو فعل ذلك –

(١٠) الإصابة (٨/ ١٦٠)

وحاشاه أن يفعل – لفشت السرقة على أمل العفو عن الاستشفاع من أقرب الطرق طريق ابنه بالتبني أو أي حبيب أو صديق أو أثير آخر..

لكن العدالة هي العدالة، والمساواة هي ديدن الحكم، المساواة بين أية عربية عادية وابنة مُحَمَّد ذاته فهو حريص على إقامة حدود الله وما أمر به الله بلا عفو ولا مسامحة ولا محسوبية.. وهذا عين التشريع حتى لا يفتح الباب لمن يلي النبي من الخلفاء والحكام، فتكون الشفاعة سنة الأمة عند ارتكاب موبقة، فتجري الأمور فوضى بغير نظام: وساطات وشفاعات ويسير كل شيء عوداً على بدء وتحصل عند ذلك النكسة الكبرى وكأن لم ينزل وحي، وكأن لم يظهر دين، وكأن ما جاء به مُحَمَّد كان حلماً راود أحلام المستضعفين ثم راح بدداً في المسافة..

وأن ما يعنينا هنا أكثر من باب المساواة هو قوله ﷺ: "ولو كانت بنت مُحَمَّد فاطمة" ففاطمة هي فلذة كبد "مُحَمَّد" وسويداء قلبه ومناط الأمل من فؤاده وهي الحبيبة الغالية التي بقيت له من الدنيا بعد موت خديجة وكل أبنائه الآخرين، وهي أصغر بناته، وهي التي لم تزل على قيد الحياة درة في حياته هو، ثم إنها بنت الغالية التي آزرته في محنته الكبرى في صراعه مع كفار قريش، وكانت أول من آمن به من الناس كافة كما في بعض الروايات، إن فاطمة بنت خديجة الحبيبة المخلصة المجاهدة معه بدمها ومالها في سبيل أعظم وأقوم رسالة عرفها الإنسان..

"ولو كانت بنت مُحَمَّد فاطمة".. وذكر النبي اسمه أيضاً على سبيل التوكيد والتخصيص توكيد شخصية الإنسان، شخصية الزعيم الروحي، ثم إنه ينسبها لأبيها العطوف عليها الرءوف بها ثم ذكر فاطمة توكيداً لأنه يريدها هي وإصرار على نيته القوية، فهو سيفعل بابنته هو ما يفعله بالسارقة الأخرى، وسيقيم عليها الحد بغاية البساطة وبلا إشفاق أو استثناء أو شفاعة أو لحمة نسب لو أن "فاطمة" ابنته أقدمت على مثل هذا الفعل الأخرق الذي حرمه الدين ونهى عنه الشرع نهياً باتاً..

وقد كان عليه السلام القدوة – فعلاً – لمن وليه من الخلفاء، ولن ينسى التاريخ أبداً أن خليفته الثاني عمر بن الخطاب أمر بجلد ابنه مائة جلدة ثمانين مات بعدها فأكملها مائة كيلا يخرج على مبدأ العدل الذي كان يلازمه ملازمة بشرته، وذلك لأنه ابنه ارتكب الفحشاء التي نهى عنها الدين..

أولم يكن عمر تلميذ مُحَمَّد.. أستاذ الجيل؟

بهذا كانت تحكم الأرض الطيبة التي طهرها مُحَمَّد بالعدل والقسطاس، بالمساواة والحرية من أرجاس الفكر وأدران الضلالة..

ولقد كان مُحَمَّد من التقدمية وعمق الفكر بحيث سوى بين الذكور والإناث فإن شطري الحياة لا يمكن أن ينفصلا أو يعلو أحدهما على الآخر..

قال عليه السلام: "من كانت له ابنة فلم يئدها، ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها – يعني الذكور – أدخله الله الجنة".

والآن بعد ألف وأربعمائة سنة من هذه الأحداث، وبعد أن نامت مصر في أحضان الاستعمار ردحاً من الزمان قامت وصحت لتنفذ تعاليم مُحَمَّد بكل دقة فقد تحررت المرأة في يومنا هذا من قيود الحريم، ونالت حريتها وعلمت وكرمت وسوي بينها وبين أخيها الشاب في الحقوق والواجبات فتولت الوزارة مثله..

وليس أعجب من باب المساواة من أن يكون أبناء الأنبياء كأبناء الآخرين بلا تفرقة وأن يصدر التصريح بذلك من الأب نفسه، فيكاد يكون الحديث الآتي ذكره أعجب ما يقرأ المرء في هذا الاعتبار ولنا عليه تعليقات وتعليقات..

ذكرت بنت الشاطئ في كتابها "نساء النبي" (طبع دار الهلال) ص ١٨٥ هذه الحادثة العظمى.. قالت:

(وآب المشيعون "بعد دفن إبراهيم" إلى المدينة واجمين، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس فقال قائلهم: "إنها انكسفت لموت إبراهيم". وبلغت الكلمة مسمع الرسول فالتفت إلى أصحابه يقول: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته"!)

إن في هذا الحديث لآيات للسائلين: أولاً أن النبي يقول أن الناس كلهم متساوون لا فضل لواحد منهم على الآخر، وأن كسوف الشمس في هذه المناسبة هو مجرد "مصادفة" محضة لا لغرض سماوي معين.. وثانياً قد رسم النبي لنا صورة الواقعية الحقيقية في عهد اتصف بالسحر والشعوذة وكانت الخرافة فيه هي التي تسير المجتمع وتحركه، وتقف به دون تقدم لأنها تحركه وراء وأمام كخرافة "الهامة" و"الصفر" و"اليمين" و"الشمال" و"الضرب بالقداح".. ولن ننسى ما ذكرناه آنفاً عن "يوم البؤس" و"يوم النعمى" اللذين خصصهما المنذر بن ماء السماء كل عام مما راح ضحيته أناس كثيرون من بينهم عبيد بن الأبرص الشاعر..

ثم إن هذا الحديث يندرج أيضاً تحت باب "التواضع" فلو كان النبي يريد المكانة السامقة لسكت على قائل العبارة بأن الشمس قد انكسفت لموت ابنه إبراهيم..

حدث كل هذا والتاريخ واقف يقلب النظر في شبه الجزيرة العربية مذهولاً من السرعة التي جرت بها الأحداث على هذا النحو الذي يشرفه من التقدم والحضارة.

مساواته نفسه بعامة المسلمين:

إن حياة الرسول حياة كلها عجب إنها زهد وتواضع، قال بلسانه الطاهر:

"عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً. قلت يا رب! ولكن، أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك".

حقاً، حياة لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر.

قال الرسول هذا، وعمل به وعاش حياة كلها الخشونة والشظف برغم أن الله أباح له الاستمتاع بالدنيا بقوله: "ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا!".. القصص!

وقوله له وللمسلمين بعامة: "كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ".. البقرة وطه..

لقد بعث مُحَمَّد ﷺ برسالة ليبلغها للبشر كافة ناقلاً أمينا ففعل وأدى الأمانة وأحسن الأداء، وكان عليه في سبيل ذلك أن يكد وينصب ويكرس لهذا التبليغ حياته حتى تستتب الدعوة وكان عليه هذه "الوكالة" أو هذا "التفويض" أن ينفذ أوامر ربه ويحملها للناس ويبلغهم إياها بحذافيرها فعل الأمين الهادي. ففعل، لكن الله الذي هو أحن على الولد من أمه أشفق على رسوله المكافح في سبيله إفراطه في الجهاد وعذابات النفس، فأمره أن يتخفف قليلاً في عكوفه على الدعوة وكفاحه، وأن يعطي نفسه نصيبها من الراحلة والاستمتاع.. لكن النبي أبى ذلك على نفسه مبالغة في إرضائه ربه وإشفاقاً من ألا تبلغ الدعوة أكبر عدد مستطاع من الناس، فلم يخالفه إهمالاً لشئون الدين– وحاشاه أن يكون– وإنما خالفه زيادة في إرضائه!!.

إذن لا تناقض بين الطاعة والخلاف، لأن الخلاف كان تأكيداً للطاعة ولا شيء غير ذلك..

"ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا" بل لقد نسي نصيبه من الدنيا لأن وفاءه لربه حال بينه وبين الإقبال على الدنيا ولو ساعة من نهار كما منعه من أن يستريح أو يستمتع وحتم عليه أن يعيش عيشة قاسية، فكان ينام على حصير تؤثر في جنبه كما رآه عمر، وإذا رجع من الجهاد قعد يرقع ثوبه ويخصف نعله بأكرم يد عرفها التاريخ، يد عامل مجتهد مجد.. وكان لا يأكل إلا القليل من التمر وإلا لقيمات يقمن صلبه.. يجوع ليشبع المسلمون.. ويتعب ليستريحوا.. ويشقى ليسعدوا.. ويسهر لينام وا وتطمئن جنوبهم في المضاجع.. ويصلي داعياً الله لهم بالهداية والتوفيق..

وراح التاريخ ينصت في إجلال، ومُحَمَّد يجيب ابن عمه علياً عن سؤاله له عن سنته، فيجيبه قائلاً: "المعروف رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة[١١]"..

كل مبادئ مُحَمَّد ﷺ وكل شمائله وجماع خلقه وجوهر سياسته وأساس معاملته، تتكشف لنا رويدا رويدا من مستهل هذا الحديث الجامع الشامل

([١١]) من كتاب "حياة مُحَمَّد" للمرحوم الدكتور مُحَمَّد حسين هيكل.

حتى نهايته، ويعنينا هنا – أكثر– ما دمنا لا نؤرخ الآن لسيرة مُحَمَّد كلها بل نتناول "شريحة" فقط من جوانب عظمته وهي "ديمقراطيته" يعنينا هنا أربع عبارات هي ألصق من أخواتها في هذا الباب وهي: الحب أساسي، الرضا غنيمتي، الفقر فخري، الزهد حرفتي.. هنا الديمقراطية بأجلى مظاهرها، هنا "مُحَمَّد" ظاهر للعيان بلا غموض ولا إبهام، بشراً مجرداً من صفات القدسية.. بل، كحاكم بشر.. هنا تصريح خطير جدير بالاعتبار والدراسة.. تصريح سياسي! إنه يضع – بعامة – المبدأ الذي سار عليه في حياته الشخصية في بيته ومع الناس..

لقد نفذ الرسول ﷺ كل هذا بنصه وفصه وطبقه في حياته الخاصة فقرن القول بالعمل إذ كان يعيش عيشة البساطة والكفاف كما قال: "الزهد حرفتي والفقر فخري" ولو شاء للبس الحرير يخب فيه خبا كما كان يفعل الأكاسرة والقياصرة!..

ولكنه كان القدوة الحسنة للفقراء لئلا يهنوا ولا يحزنوا ولكيلا يستأثر هو عليهم بشيء برغم أنه حاكم ورئيس دولة، والمتاع كله مشاع له ملك يمينه من الفيء والغنائم. وكان رضاه بما قسم له غاية الإيمان والزهد كذلك، ثم أن قوله عليه السلام: "والصبر ردائي" كان شرحاً لسياسته الخاصة سياسة نبي كان من أول مستلزمات نشر دعوته الصبر..

وقال عن نفسه في موضع آخر: "إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد" والمقصود "بالعبد" هنا "عبد الله" طبعاً.. سلام

عليك يا رسول الله في النبيين فهذا كلامك وهذا عملك متآزرين لينسجا بنية لحمتها التواضع وسداها البساطة والاعتداء والتضحية.

دونك مثال آخر لزهده واجتهاده واشتراكيته:

سئلت السيدة عائشة: ما كان يصنع النبي في أهله؟

قالت: كان من مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة فكان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويرقع دلوه ويحلب شاته ويخدم نفسه.

العمل.. العمل.. العمل.. أي من العرب مهما كان رفيع القدر ملكاً مملكاً في قومه مؤمناً وموحداً بالله يرى هذا فلا ينزل من عليائه إلى معترك الحياة معترك العمل..

حقا. وكان أبو بكر وعمر والصحابة الآخرون يحاكون النبي، يعملون ولا يكلون تشبهاً بمن كان كل شيء ملك يمينه فيعرض عنه ويجعله دبر أذنه زهداً فيه.. العمل والكفاح للناس كافة، أما القعود والإخلاد إلى الدعة فلا يغنيان فتيلا، ولا يعنيان سوى الكسل والبطالة..

وإنما ضربت هذا المثل أيضاً لمن يقسمون الأعمال إلى رفيعة ووضيعة فها هو ذا رئيس أول جمهورية عربية إسلامية يعمل كل شيء بيده، ويقوم بالأعمال العادية التي هي من اختصاص الرجل العادي، وهو الذي لو شاء أو سمح لهرع لخدمته آلاف المسلمين لا لكونه زعيماً وحاكماً، فكثيرون من الحكام مبغضون لدى محكوميهم لعنجهيتهم واستعلائهم، ولكن لكونه

إنساناً وهادياً ولكونه محبوباً، ولكونه الشخص الذي أنقذ العرب من التردي في هوة البوار، بأن هداهم إلى الإسلام، ولكونه موضع السويداء من قلوبهم، ولكونه محط الرجاء والخير والبركة، ولأن رضاه هو طريق الجنة، فلو شاء وبمجرد إشارة من إصبعه لأقبلوا إليه يزفون يقفون بين يديه يلتمسون الأمر بالخدمة!..

أو لم يكن هو الذي كان المؤمنون يتخاطفون جذاذات شعره المقصوص يتبركون بها عقب صلح الحديبية، ويتخذون من تلك الجذاذات أحرازاً يدرءون بها عن أنفسهم نوائب الدهر وويلات الزمان.. وذكرى عزيزة من الأب والأخ والصديق.. الذي وقف لهم على حافة الهاوية يحجز بيده المباركة زمرتهم من التردي في حفرة النار؟..

إنه لهو ذلك الرجل، مُحَمَّد ﷺ الشفيع الرفيع الذي أبى أن يسير الله له بطحاء مكة ذهباً، لكنه رأى في العمل شرفاً أي شرف. ومتى؟ في وقت كان التفاخر فيه بالأنساب والتغني بعراقة المحتد هو ديدن العرب، وهو الهدف الأول من قول الشعر والحافز الأول لسلوك العربي في حياته وكان "العمل" عندهم خدمة لا ينزل إليها السراة!

ولقد كان في هذا النبي العربي الأمي أسوة لنا في قائدنا الملهم وباعث نهضتنا في هذا العهد الجديد في القرن العشرين وفي بلدنا هذا الذي تنعكس فيه تلك الثورة الكبرى التي قامت في الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرناً.. فقد قال رئيسنا وقائد نهضتنا أن كل من تقاضى أجراً فهو

عامل من رئيس الجمهورية حتى العامل الصغير.. لقد قضينا على الإقطاع وعلى الاحتكار ورأس المال المستغل، وحررنا الفلاح من إسار الذل وأعطينا العامل حقه في المصنع الذي يعمل فيه، ورددنا إلى الإنسان اعتباره، فها نحن نسير إذن في نفس الطريق تحريراً للإنسان وكبحاً لجماح كل من حدثته نفسه بالطغيان على من حوله من بني جلدته..

ودونك أيها القارئ أعجب مثال لمساواة رسول وحاكم نفسه بالناس، بغيره من صغار رعاياه. بل لقد نزل بنفسه عن منزلة العربي العادي وفرض على نفسه الحمص والسغوب أي الجوع الشديد، فكان قدوة لأصحابه، ذلك الذي أقبلت عليه الدنيا بزخرفها ومتاعها فأشاح عنها وأعرض ونأى بجانبه وأبى إلا مكابدة شظف العيش ومجالدة الفاقة حتى يشعر بما يشعر به الفقراء من آلام فيظل ذاكرهم – حياته – ليعمل من أجلهم، وحتى إذا شبع حمد الله وإذا جاع تضرع إليه ليكون على صلة دائمة بربه الذي خلقه وهداه وجعل الخير مما صنعت يداه..

ذكر المرحوم الأستاذ عبد الوهاب حموده في كتابه الصغير الكبير وهو المسمى "الرسول في بيته" هذه النادرة التاريخية:

(روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: "خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال "ما أخرجكما من بيتيكما هذه الساعة؟" قالا: "الجوع يا رسول الله" قال: "وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما". فأتى بهما رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته. فلما رأته

المرأة قالت: "مرحباً وأهلاً" فقال لها ﷺ: "أين فلان؟" قالت: "ذهب يستعذب لنا الماء". إذ جاء الأنصاري. فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: "الحمد لله.. ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني"!.. فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب. فقال: "كلوا".. وأخذ المدية فقال رسول الله: "إياك والحلوب". فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق (العذق عنقود من النخيل) وشربوا، فلما شبعوا ورووا قال ﷺ لأبي بكر وعمر: "والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة.. أخرجكم من بيوتكم الجوع.. ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"!).

حسن!.. أهذه حياة حاكم يملك أن يأكل الفطير وينام على الوثير ويخب في الحرير؟.. يخرج من بيته جوعان طاوي البطن هو ومن كان يملك أربعين ألف درهما ففرقها مختاراً ليفتدي بها العبيد المعذبين؟ وآخر – عمر – وكان في جاهليته، يستنكف لكبريائه وعظمته أن يميل ميلة إلى الأرض يلتقط سيفه هو المرصع بالدر والجوهر واليواقيت، فيظل واقفاً بجواره حتى يمر به من يكتريه ليناوله إياه من على الأرض!.

رباه.. ماذا فعل الإسلام بهذه النفوس؟

زاد من لألائها وأضاء ما أعتمته الجاهلية منها على مدى السنين والحقب..

رباه.. ألا تكن هذه الديمقراطية والمساواة بأجلى معانيها فأين تكون؟ يارب.. لقد أكرمتنا الكرامة كلها حين بعثت فينا نحن البشر مُحَمَّداً مبشراً

ومنذراً، وناشراً للعدل مردداً كلماته لصلاح الإنسانية وخير البشرية يا رب!

أبمثل هذه البساطة؟.. أبمثل هذا العناء يعيش حاكم وقائد يرى كل مسلم شرفاً أي شرف له أن ينزل عن بعض ماله بل عن ماله كله ليكون ملك يمينه، حاكم يقع له من الفيء والغنائم من الغزوات التي قام بها لنشر الدين الجديد ما لا يكاد يقع تحت حصر؟

إنما الحياة بالطمأنينة والهناءة وليست بالمال الجم.

ليس للمكثر المنغص عيش إنما عيش عانش بالهناء

ولم يكن مُحَمَّد ﷺ وصحابته بعيدين عن السرف فحسب، كانوا غاية التواضع والديمقراطية: همة وعظمة وعلو مكانة.. ولن ينسى التاريخ للنبي هذه الحكاية التالية في مساواته نفسه بأقل عربي وهي التي ذكرناها آنفاً ولا بأس من إيرادها تكراراً للشيء الحسن وإن لنا في التكرار القرآني لأسوة حسنة..

قال أبو هريرة رضي الله عنه: دخلت السوق مع رسول الله لنشتري سراويل فوثب البائع على يد النبي ﷺ ليقبلها فجذب يده ومنعه قائلاً له: "هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك، إنما أنا رجل منكم، ثم أخذ السراويل فأردت أن أحملها فأبى وقال: "صاحب الشيء أحق بأن يحمله"..

حسن.. والآن لقد أبى الرسول أن يرفع نفسه فوق مستوى بائع عادي وهذا غاية المساواة.. فما كان ذلك الرجل بحاكم ولا مختار لحمل أشرف رسالة في الوجود وقد دلل لنا الرسول بهذه الحكاية على أن الحاكم الحق هو من الشعب وبالشعب وفي خدمة الشعب، وأنه أثبت أنه على السلام أبعد ما يكون عن الأبهة والترف والسرف! فأي مثال يحتذى وأي حاكم ينسج على منواله الحكام.. مُحَمَّد.. إنه نسيج وحده.. وإذا فعل فعلاً فعله خلفاؤه الصالحون الذين ترسموا خطاه واقتفوا أثره فكانوا خير هداة للناس..

ألا بمثل هذا فليعمل العاملون.. ولو شاء مُحَمَّد لكفى نفسه مشقة الذهاب إلى السوق وجاء بعشرات التجار معهم بضاعتهم إلى داره ينتقي منها ما يشاء، لا من شبه الجزيرة العربية فحسب بل ومن فارس والشام المشهورة بفاخر الثياب من الخز والديباج..

وهرع إلينا أبو هريرة ليؤرخ وينقل لنا أرفع مبادئ الديمقراطية منذ بدء التاريخ مبادرة من أشرف من أقلته الأرض.. ولن ينسى التاريخ المنصف ما سبق أن ذكرناه آنفاً من أنه كان على سفر مع جماعة فقام يجمع الحطب ليشاركهم العمل.. "وعلى جمع الحطب".. اشتراكية!

شرفت نسباً وسموت أصلاً وعلوت أدباً وكرمت منزلة باختيار الله إياك سفيراً وخليفة له على هذه الأرض.. لقد قالها للناس دون أن يقولها

بلسانه: إن الحاكم ليس بصاحب مظهر وإنه.. عامل اقتداء بقوله تعالى وتطبيقاً عملياً له: "قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ"..

اشتراكية. ديمقراطية. تعاونية.. بالقول والفعل.. إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب، والآن وفي القرن العشرين يتبدى التطبيق العملي في الرجة الكبرى التي حدثت يوم ٢٣ يوليه عام ١٩٥٢ ونرى الحاضر العتيد باديا للعيان في مرآة الماضي التليد.. لقد جددنا عهد مُحَمَّد: هنا في بلدنا هذا في عهدنا هذا في يومنا هذا.. ونحن على العهد باقون!

وأعظم الذي فعلناه تحرير العبيد من الفلاحين الذين أناخ عليهم الدهر بكلكله ستة آلاف سنة بل تزيد، حررناهم من تحكم الإقطاعيين المحتكرين.. وحررنا العمال – أنصاف العبيد – من تحكم أصحاب المصانع والمساهمين في بنك روتشيلد والبنوك الأخرى، وأصبح الفلاح مالكاً للأرض وأصبح العامل مالك مصنعه.

وقالت السيدة عائشة: "ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة ولا خادماً قط".

وكان عليه السلام يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلتمس عنده ملجأ وكان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض، وكان يمسح لجواده بكم قميصه. فعل هذا ولم يأمر أحداً بالبيت بأن يقوم عنه بها العمل لا زوجة ولا خادماً وهم أولى به منه. وحسبه ما يضنيه وينضيه بالنهار من نشر للدعوة وإرسال للبعوث وما يلاقيه من أذى قريش وعنتها مما لا طاقة

لأحد بتحمله. لكنه لم يكن ليفرق بينه وبين سائر المسلمين حتى خدمة وإنما كان يسوي بينه وبينهم نعم الأخ الحائي المتواضع، مع استطاعته أن يرتدي كل مظهر من مظاهر السلطان. أو لم يكن هو صنيعه الذي نشأه وحلاه بكل نقيبة وقال فيه: "وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ".

الحب والمساواة:

هل يتناقض الحب والمساواة؟.. بمعنى: هل من المستطاع معاملة المحبوب وغير المحبوب ممن دخلوا في ذمة المرء وكلف بهم على قدم المساواة جميعاً بلا تفرقة؟ أو يستلزم الحب إيثار المحبوب على غيره ممن يحبهم المرء أقل منه أو لا يحبهم إطلاقاً؟. وإذا حدث هذا أي هذه التفرقة فأين تكون المساواة إذن؟.. لأن يجمع المرء بين الحب والمساواة، هذه هي المسألة.. أيفعلها المرء وهو راغم غصباً عنه والجوى يفريه وحسن الحبيب يغريه؟

وإذا كان الزوج يحسن عاطفة أكثر نحو زوج من أزواجه إن كان زواجه بأكثر من واحدة، أمن العدل أن يؤثرها في النفقة عليهن من الكم والنوع والمبيت في اتساع الرقعة وجمال الأثاث والرياش؟. وكيف تكون الحال إذا حمل الزوج نفسه حملاً على توزيع بشاشته وملاطفته وحلو حديثه بين اللواتي لا يتساوى حبه لهن؟. أفلا يكون في ذلك ضرب من عذاب النفس؟. أو بصريح العبارة: هل كان من الميسور أن يعامل مُحَمَّد زوجته الصغيرة الحسناء وبنت حبيبه، وأول المصدقين بدعوته عائشة بنت أبي بكر كما يعامل سودة بنت زمعة مثلاً التي لم يكن يحبها قيد أنملة وتزوجها عزاء

لها في شيخوختها عن فقد زوجها، ولأنها كانت من أول من دخل في دين الإسلام وهاجرت إلى الحبشة هرباً بدينها من كفار قريش؟

سؤال آخر: هل يمكن المساواة في الحب بدافع العدالة الاجتماعية التي يجب أن تسود الكون كله في سائر المجتمعات، وبخاصة مجتمع الرسول الذي احتاج أول ما احتاج إلى المساواة وإزالة ركام المهانة الذي رزح تحته العرب آلافاً من السنين؟

إن كانت الإجابة بالإيجاب أي أن يسوي المرء في حبه بين النساء في هذا المعرض فهي إجابة أدعى إلى السخرية. فإن العاطفة شيء آخر.. وشعور المرء ليس عملاً ولا سلوكاً فهو شيء لا سبيل إلى السيطرة عليه وتحويله عن مجراه الذي شقه لنفسه لأن الشعور شيء طبيعي وليس إرادياً.. وقد قالها مُحَمَّد صريحة لا لبس فيها ولا إبهام، فالمساواة يمكن لمسها في النفقة بالكم والعدد..

أما الحب فهو أمر كامن في النفس لا يرى، ونحن لا نحب بدرجة واحدة لأن النفس نزعات وذوقاً خاصاً برغم أن هناك معايير للحب والجمال اصطلح عليها الفلاسفة غير أننا أحياناً ما تختلف نظرتنا لما أمامنا وتقديرنا له بالنسبة لذوقنا الخاص، نعم كلنا نحب النظافة والمكان النظيف، ولكن بعض الناس لا يروقهم هذا..

وقد يكون الشخص محبوباً من جميع الناس إلا البعض وهنا اختلف الذوق رغم شبه الإجماع على حبه، والذي أحب فعدل بين من أحبه أكثر

من غيره وبين الآخر هو بلا شك على جانب كبير من قوة الخلق بما يتنافى مع سعادته هو، والمقصود هنا المساواة في المنفعة أما المساواة في الحب فليس إليها من سبيل. وهذا ما فعله الرسول فقد أفرد لكل من أزواجه غرفة في بيته بمسجد المدينة وعاشرهن كلهن بالمعروف بلا تفرقة، وقسم بينهن بالعدل في المبيت والنفقة، وكان يحتمل غضبهن وغيرتهن بالصبر الجميل، والإناة والموعظة الحسنة..

ولم يكن عليه السلام يفرق في هذا كله بين عائشة بنت أبي بكر أحب نسائه إليه وبين سودة بنت زمعة التي تزوجها جبراً لقلبها الكسير، ولكنه في قرارة نفسه كان يؤثر بالحب عائشة الحسناء بنت صاحبه أبي بكر الصديق.. ومن هنا كانت المساواة الكاملة ولم تخرج عن مبدأ المساواة الذي يأخذ نبي به نفسه مما لا يخرج عن موضوع هذا الكتاب.. فالمساواة في المعاملة هي المقصود من مبدأ المساواة.. وكان ﷺ يزورهن كل صباح للوعظ والإرشاد، ومساء للمجاملة وحسن المعاشرة والمؤانسة كذلك ليوزع عليهن هشاشته وعطفه ولطفه بالقسط، وكان يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن حتى إذا خلا بهن كان ألين الناس، ضحاكاً بساماً كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها..

ذوق.. وأدب.. وكياسة.. وكان عليه السلام لفرط ديمقراطيته بين زوجاته، إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه. إن عائشة هي التي ذكرت ذلك، ولم يؤثرها النبي هي نفسها دون زوجاته الأخريات بمصاحبته على حبه الشديد لها وعلى إن

كانت بنت ابن أبي قحافة أحب الرجال إليه وعلى كونها ذات دل وحسن ساحر وبديهة حاضرة وشجاعة وفصاحة لسان..

وأبعد من هذا في باب الديمقراطية أن كان عليه السلام عادلاً غاية العدل في عقوبته لهن إذا ما بدر من إحداهن ما يستوجب العقوبة.. لكن برغم اختلاف درجات حبه لهن ما ضرب بيده امرأة ولا خادماً قط وكان عليه السلام يقول: "أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد؟ يضربها أول النهار ثم يجاملها آخره؟"

تقول الدكتورة بنت الشاطئ في كتابها "نساء النبي"[١٢]: "وصحبت أم سلمة الرسول كذلك في خروجه لفتح مكة، ثم في حصار الطائف وغزو هوازن وثقيف، حتى إذا عادت إلى المدينة في السنة الثامنة للهجرة، أثارت نساء النبي غيرتها على "مارية" حتى استجابت لمنافستها الأولى "عائشة" ورضيت أن تظاهرها في الكيد لمارية.. انتهى بهن الأمر إلى أبشع مدى، حين أثرن غباراً من الشك والريبة حول نسب الجنين، وبلغ الرسول ما اتهمت به مارية من الاتصال بخادم لها.. ظهر أنه خصي.. ووضعت مارية غلامها إبراهيم– ﷺ– في السنة الثامنة للهجرة ورأت "أم سلمة، وعائشة، وحفصة، وزينب" وبقية النساء مبلغ فرح الرسول به، فكانت المغاضبة التي حملت الرسول على اعتزالهن شهراً". (انتهى كلام بنت الشاطئ)..

(١٢) ص١٢٣، ١٢٤ طبعة دار الهلال.

هكذا عاقب الرسول كل من غاضبنه واشتركن في اتهام مارية القبطية بهذه الشنعة عقوبة واحدة عادلة مع الكل ولم يؤثر أحداهن على الأخرى فيهجرها أقل من زميلاتها حتى ولو كانت عائشة بنت أبي بكر. وكان بعض أزواج النبي يعيرن صفية بنت حيي بأصلهن العربي القرشي وبالدم اليهودي الذي يجري في عروقها، تصريحاً وتلميحاً. فقد كانت صفية وزينب بنت جحش على سفر برفقة النبي ﷺ فاعتل بعير صفية فطلب إليها الرسول أن تعيرها بعيراً فعرضت بأصلها اليهودي قائلة: أنا أعطي تلك اليهودية؟.. فتولى الرسول عنها مغضباً وهجرها شهراً وقيل شهرين بل ثلاثة.

وكانت زينب بنت جحش من أحب نساء الرسول إليه وهي التي خاض المستشرقون في ذكرها لجمالها الباهر، فنسجوا حولها قصة غرام مع النبي ولم يؤثرها النبي هي وعائشة على سائر زوجاته الأخريات في النفقة أو غيرها. وقال ﷺ في حسن معاشرة الزوجات: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم لنسائكم". وفي حديث آخر شبيه به: "خيركم خيركم لأهله".

هكذا كانت مساواته لنسائه وبهذه المساواة والديمقراطية كان الحب العميق من نسائه له والتقدير القلبي من كل زوج منهن والغيرة الشديدة – والغيرة دليل الحب – عليه للاستئثار بحبه ورضاه، كل تريد أن تستخلصه لنفسها وجعلهن النفس هي نجواه حتى لقد أبت أم سلمة على عمر بن الخطاب المهيب الرهيب وهو من هو من الحكمة وأصالة الرأي والجد بل ومن كان يمت لها بصلة القربى، أن يدخل في شأن من شئون زوجات النبي

قائلة له: "عجباً لك يا بن الخطاب قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه؟". أي مالك ولنا يا بن الخطاب؟ إن الوشيجة التي بيننا وبين النبي لا يمكن أن تنفصم عراها فمهما غضب أو غضبنا فليس في القلب سوى الحب وهو زوجنا وحبيبنا الحفي بنا.

وبالديمقراطية – المساواة – أباح لنسائه رضوان الله عليهن أن يكن – جميعاً – منارات عرفان ومنابع هدي للمسلمين يبصرهم بشئون دنياهم وآخرتهم وتلك هي الحكمة الأولى من زواجه ﷺ بأكثر من واحدة للإكثار من المدارس أو بالأحرى الكليات التي بها يتلقى المسلمون تعاليم الدين من صلاة ومواريث وعلاقة زوجية وأحكام عامة أخرى.. كذلك كن يكفلن الأرامل واليتامى بإذنه كما تفعل اليوم كرائم العقيلات وكما تفعل الجمعيات الخيرية للسيدات.

تلك كانت ديمقراطية الرسول في بيته وبين ظهراني أهله.. تلك كانت الديمقراطية عنوان السماحة.. أما الحب فهو شيء آخر من حيث هو عاطفة وطريق غير تلك الطرق شيء لا حيلة للمرء فيه وقد أبرز الرسول عليه السلام هذا المعنى في قوله مخاطباً ربه في عدم استطاعته التسوية بين زوجاته في اتجاهات القلب ونوازع الروح قال: "اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك!".

وهذا أيضاً غاية الإيمان لأن الرسول لم يطلب إلى ربه غير هذا وقد قالها ﷺ بأسلوب الحزين الذي يأسى لشيء ليس إلى تجنبه من سبيل،

وهذا يظهرنا أيضاً على شدة حرصه على مبدأ المساواة بين أزواجه في عاطفة القلب لأنه يحس أنه قد غبن بعضهن بقلة حبه أو بإيثار واحدة في حبه على الأخرى، ويخشى أن يطغى حب أحداهما على قاعدة المساواة التي هي ديدن الرسول فيؤثر المحبوبة الممتازة المختارة على سواها، لكنه استطاع أن يعدل وأن يسوي بينهن في النفقة ونحوها كما مر.. وهذا هو العدل خارجاً عن نطاق الحب، أما الحب الذي لا يملكه فليس إلى العدل فيه من سبيل..

الخارجون على القانون، ومبدأ الديمقراطية بمعنى "المساواة":

إن المرء ليطرح على نفسه هذا السؤال قبل أن يختتم فصول هذا الكتاب. هل حتم أن تتناول المساواة التي وردت في الكتب السماوية والقوانين الوضعية المجرمين والمنحرفين والخارجين على القانون؟. كيف يعاملون؟ وقد حكم عليهم بأنهم مذنبون فعلاً، وأنهم أقل في المستوى الأخلاقي من بقية الناس، وهل تتنافر عدالة العقوبة مع المساواة بالآخرين في الحقوق المختلفة من مسكن وملبس وطعام وثقافة وما إلى ذلك بجانب تقييد الحرية التي هي ضرورة لازمة لمعاقبة الخارجين على القانون وكفهم عن أن يكونوا معاول هدم لبقية الناس حتى يعرفوا قيمة الحرية فيحترموها.. كيف يعاملون بعد أن أدينوا؟ وهل ينبغي أن يؤدي المجرم بعد ثبوت إدانته بحكم محكمة، ويعامل معاملة خاصة قاسية في الحقوق الإنسانية التي ذكرناها، معاملة تتفق مع نفسيته الشريرة وسلوكه المنحرف المعادي للمجتمع؟

في رأينا.. كلاً فالعقوبة التي تنزل بالمذنب من حبس بسيط أو شديد "بالأشغال الشاقة" تتساوى في ذاتها مع ذنبه الذي هو دليل انحرافه عن جادة المجتمع الذي يعيش فيه والذي يجب أن يتفاعل معه لخيره ويتعاون معه على الخير والبر، ومن حقه بعد أن أخل بواجباته نحو المجتمع بانحرافه ونال العقوبة الرادعة التي يستحقها جزاء وفاقاً، من حقه أن يأكل حتى يشبع فإذا مرض فله أن يتداوى ومن حقه أيضاً أن يقرأ وأن يكفل له ما يقيه عادية الحر والقر صيفاً وشتاء، وأن يضاء له إذا أرخى الليل سدوله عليه فلا يعيش كأنه في كهف أو مغارة، ومن حقه في سجنه أن يحيا في غرفة صحية وتبعد عنه الحشرات والهوام والقوارص والقوارض.. ولكن هل لمثل هذا أن يعامل معاملة المواطن الصالح الذي يؤدي للمجتمع خدمات لا تتأتى لمئات بل آلاف غيره من البشر، أقصد من الأفراد العاديين؟

لا.. لا يجوز والحالة هذه أن يمتع المسجون بالحلل من الصوف الفاخر والأقمصة من الحرير الفاخر أيضاً وأن يسجنوه بعد الحكم عليه في "فيللا" أو قصر منيف يطل على البحر المتوسط صيفاً، حتى إذا حل الشتاء بزمهريره القارس بعثوا به في رحلة ممتعة ليتفرج ويمتع ناظريه بمعبد الكرنك في الأقصر إذ كان عربياً مثلاً..

هذه هي ماهية الديمقراطية أو بالأحرى فلسفة الديمقراطية بالديمقراطية بمعنى المساواة أن يكون لكل إنسان مهما كان مركزه الاجتماعي وسلوكه.. حميداً كان أو غير حميد حقه في الحياة والعيش والتداوي والثقافة..

هذا حق يجب أن يكفل للناس كلهم حتى المذنبين منهم الذين حدت حريتهم وحددت إقامتهم تأديباً لهم وحماية للمجتمع منهم، فإذا كان من حق المذنب أن يتساوى في كل هذه الحقوق مع كل مواطن فما أحرى المجتمع كله أن يكفل له هذا الحق فهذه الحقوق الأولية يستوي فيها المذنب والعادي والمصلح الاجتماعي والمخترع ومدير المصنع وغير هؤلاء.. ولكن هناك فروقاً في المعاملة يجب أن تراعى عند تطبيق قواعد المساواة، وذلك في الاحترام ومستوى المعيشة وألوان السعادة على حسب ما نسلك وكيفما نعمل..

إذن مبدأ المساواة لا يتنافى مع تقدير النوابغ والأبطال وتكريمهم وكفالة السعادة لهم؛ فالراحة وحق الحياة غير السعادة الكبرى التي تتفق في درجاتها مع ما نقدمه للوطن من خدمات بمعنى أن يكون للممتازين حياتهم التي هي أرغد على حسب ما يقدمون له من خير ومنفعة. هذه هي الديمقراطية بمعنى المساواة وهذه هي الاشتراكية الحقة.. إذن فالمساواة هنا لم تخرج عن مفهومها ومنطوقها وتطبيقها العملي.. ومن هنا كانت معاملة مُحَمَّد للناس على قدم المساواة في حق الحياة والراحة والطمأنينة والأمن وتكافؤ الفرص..

كان عهد عمل حث عليه القرآن وأشار إليه النبي في شتى أحاديثه، ومن هنا ذهب عمر – العامل– إلى المرأة الفقيرة بنفسه وعلى ظهره الدقيق والسمن يوقد النار وهو يبكي ويطهو وهو يبكي لتأكل المرأة وتطعم أولادها كما يأكل الأفراد العاديون الآخرون ويطعمون أفراخهم..

ومن هنا كان أبو بكر يؤم بيوت الأرامل يحلب لهن الشياه ليعشن ويأكلن هن وأبناؤهن كما يعيش ويأكل الأفراد العاديون ويطعمون أفراخهم. ومن هنا كانت المساواة وكانت المواساة.. وكان الرسول يوزع الغنائم والفيء على المسلمين، ولكن هل كان التوزيع يتم بالتسوية؟

لا أعتقد فإن لكل نصيبه بحسب ما أداه في القتال ونشر الدعوة من جهد، حفزاً على العمل، وحثا على الجهاد والاجتهاد، وخلقاً لروح التنافس بين الناس ليرقى المجتمع. وبديهي أن الناس ليسوا كلهم على درجة واحدة من الإنتاج.. من هنا نرى بجلاء كالضياء في الليلة الظلماء أن الديمقراطية ليست التسوية التامة بين جميع الناس في كل المرافق وإنما هي تنصب على ما ذكرنا فحسب من الراحة والملبس والطعام ونحوه وقد ورد هذا صريحاً في القرآن الكريم عن العمل والعلم والنشاط والسعي في سبيل لقمة العيش.. وأن المساواة في الحقوق التي ذكرنا لتقف سداً منيعاً ضد الفقر والجهل والمرض وتكفل للناس جميع حقوق الحياة من مسكن وملبس ومأكل ومشرب وثقافة وتطبيب.. ولكن: من كل على قدر إنتاجه ولكل على قدر إنتاجه.. فماذا فعل مُحَمَّد؟ غير هذا؟

لا.. مُحَمَّد أظل بجناحيه جميع العرب فكفل لهم الراحة والطمأنينة وتكافؤ الفرص.. وأقام الاشتراكية.. وحكم بالسوية.. بالديمقراطية.. فكان متواضعاً وكان عادلاً وكان يحكم الشعب بما يرضيه.. مُحَمَّد.. فك إسار العبيد، وهذه الديمقراطية الحقة.. وأطلق العدالة التي كانت حبيسة في سلاسل في الجزيرة العربية قرونا وأجيالاً من بدء التاريخ حتى عام ٦١١م

بدء الدعوة المحمدية.. مُحَمَّد.. رد للإنسان كرامته واعتباره فشعر بأنه إنسان وليس كلباً أو هراً أو خنزيراً أو.. بقرة.. يضرب الإنسان كما يضرب الكلب.. ويعذب والعذاب محرم حتى على السائمة.. ويباع كما يباع الجمل.. وإذا مات ذهب بدداً لا يذكره أحد ولا يبكيه أحد إلا التعساء الأذلاء أبناؤه فإذا حزن عليه سيده فلأنه فقد يداً عاملة.. فعرف هذا الإنسان لأول مرة بعد أن جاء مُحَمَّد بما جاء به من عند الله أنه من سلالة سادته.. إنه مثلهم من أب واحد (آدم)! ولن يستذل أو يستغل بعد اليوم فإنه في حماية مُحَمَّد القوي الأمين ومبدئه القويم.

ورأى مُحَمَّد ﷺ أن الحياة شطران تقوم على شيئين ذكر وأنثى فسوى بينهما. ورفع مُحَمَّد اليد عن الموءودة.. وإنارة مُحَمَّد بقنديل ربه النفوس التي غشاها ما غشاها من ظلال الجهل، وبضربة واحدة من يد الحق هشم تلك الأصنام والأوثان النخرة القبيحة المنظر والمخبر فانهارت الواحدة تلو الأخرى وراحت في خبر كان وأزاحها من طريق النور.. طريق الحرية.. طريق الإنسانية.. طريق الديمقراطية.. طريق الله..

محررون هناك، وعبيد هنا:

وقعت هذه الأحداث الهائلة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان والإنسانية مستلقية هناك على رمل الصحراء اللافح في إعياء شديد عندما صحت الدنيا وقد بهرها النور الجديد الشديد يشع من الفتى القرشي اليتيم..

عدالة.. حب.. وألف بين الأبيض والأسود حين تبين للناس الخيط الأبيض من الخيط الأسود عندما جاءهم النذير.. لقد حدثت الهزة الكبرى التي أهوت بالأصنام من حالق فلم نجد أبداً هناك "صنما قد هام في صنم"..

حدث هذا في عهد النبي العربي الأمي الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب.. حرية، إخاء، مساواة. جاء بها الإسلام على يد سفير الهدى رسول العدالة والديمقراطية "مُحَمَّد" قبل أن يأتي بها "روسو في القرن الثامن عشر بعده باثني عشر قرناً إذ كانت غالة "فرنسا حينذاك" تتعثر في أذيال الهمجية وتتخبط في دياجير الجهالة لا تجد من يهديها سبيل النور والنظام..

ومهد مُحَمَّد ﷺ بهذا الذي حدث في مطلع القرن السابع الميلادي لقيام الثورات الإنسانية التي هبت فيما بعد وكانت أبعدها أثراً الثورة الفرنسية التي هبت ريحها على أوربا في سنة ١٧٨٩، فقد تشبع الجو العالمي من ذلك التاريخ بمبادئ الإسلام وديمقراطية مُحَمَّد وامتلأ من العبير الإنساني الذي انتشر عرفه وشذاه وضاع أرجه في متاهات الدنيا ومجاهل الأرض اثنى عشر قرناً ليهز كيان أوربا كلها عندما هبت عليها ريح الثورة الفرنسية الكبرى..

نعم لم يلغ الرق تماماً دفعة واحدة وإنما أمر مُحَمَّد الناس معاملة الرقيق مثل معاملة الأبناء وكان بقاء ضرورة اجتماعية منتشرة في العالم كله كما سبق أن ذكرنا آنفاً.. بيد أن الإسلام فتح للرقيق الباب على مصراعيه

ليتحرروا وليحرروا أنفسهم من ربقة الذل فوضع قواعد ميسورة للخلاص من الرق وحتى لو بقي بعض الرقيق في خدمة بعض الناس فإن حسن معاملتهم لا يبقى من الرقيق إلا اسمه.. نعم.. حدث هذا منذ ألف وأربعمائة سنة فانظر ماذا يحدث اليوم بعد هذه الأزمنة الطويلة في العصر الذي يطلقون عليه عصر الحرية، العصر الذي بلغ به التقدم الفكري أن غزا الإنسان الفضاء وغاص تحت الماء وأوشك أن ينزل على سطح القمر..

اسمع ماذا حدث الآن وقارن أيها القارئ بين عهدين.. ماذا يحدث الآن في اتحاد جنوب إفريقية وفي روديسيا الجنوبية وفي أنجولا وموزمبيق بل وفي الولايات المتحدة التي تتزعم العالم الحر في الباما ونيوجرسي وكارولينا الثالثة الأخرى.. ماذا يحدث؟ ماذا نرى ونسمع؟.

التفرقة العنصرية بأبشع صورها وأجلى مظاهر عبودية الإنسان.. في الولايات المتحدة يشنق السود في أغصان الشجر ويمنعون من ركوب الحافلات "السيارات العامة" وارتياد المطاعم لأنهم في نظر البيض وباء ونجس، وللبيض منتديات وللسود مثلها، ولو دخل زنجي منتدى للبيض نهروه وطردوه كما يطرد الكلب، وذلك إن لم يقتل أو تكسر له ضلع. وهناك جمعية "كوكلاكس كلان" الإرهابية التي ترتكب أفظع الجرائم ضد الملونين في أمريكا.. وفي بعض الولايات الأمريكية يحرم على الملونين– بقانون– الالتحاق بالجامعات.. وتبعاً لهذا لا يجوز في منطق التفرقة العنصرية المقيتة أن يقترن زنجي ببيضاء ولو أعجبها ولو كان بينهما من

الحب والجوي ما يفرى الأكباد.. يحدث هذا في أمريكا الشمالية وكلهم مواطنون في بلد واحد، فماذا يقع في المستعمرات؟

إلى عهد ليس ببعيد كان الإنجليز في الصين يحرمون على أهل البلاد مجرد مجاورتهم فكانوا يبعدونهم عن قلب المدن ويسكنونهم في أماكن نائية وكانوا يستخدمونهم في جر العربات ونقلهم "بالركشا" ويمنعونهم من ارتياد منتديات خصصت للرجل الأبيض دون الرجل الأصفر بل لقد كتبوا على بعض الحدائق العامة "شنغهاي" بلد التفرقة العنصرية الأصيل: محظور على الوطنيين والكلاب دخول هذا المكان.. إلى هذا الحد من المهانة يقرن الآدمي بالكلب، وقد كتبت هذه العبارة عمداً زيادة في النكال بمن أوقعهم سوء طالعهم في قبضة الاستعمار وبراثنه..

وفي اتحاد جنوبي إفريقية وفي روديسيا الجنوبية يتحكم الرجل الأبيض في أصحاب البلاد الشرعيين تحكم السيد في العبد فالبيض يملكون كل ثروات البلاد وليس للسود هناك أية حقوق سياسية أو اجتماعية فوق عزلهم التام وإسكانهم بعيداً عن المدن واستخدامهم في الصناعة فترة العمل في المدن على أن يعودوا بعد انتهاء العمل إلى مساكنهم النائية لئلا يختلطوا بالبيض وكأن سوادهم طلاء أسود يخشى الأبيض على ملابسه من أن تتسخ منه أو كأنه السناج "الهباب" يخشى من قذارته ودنسه، وقد حرص الرجل الأبيض باستمرار على أن يبقى الملونين دائماً في حالة جهالة وفوضى كيلا يفطنوا إلى حقوقهم فيطالبوا بها أسوة بغيرها ممن نالوا حريتهم.. وفي مستعمرات البرتغال يسيرون على السياسة نفسها بل

وبصورة أبشع.. سياسة تقوم على الحقد والكراهية ولا بد أن يولد الحقد والغلظة عند الرجل الملون لأنه لن ينسى الاستعباد والاستغلال وسوء المعاملة التي سامه ويسومه إياها الرجل الأبيض الغاصب لأرضه وثرواته..

أما في الحياة الإسلامية وعلى يد مُحَمَّد ﷺ فالناس كلهم "سواسية كأسنان المشط".. فانظر إلى سماحة مُحَمَّد وديمقراطية مُحَمَّد بعد هذا كله.. "ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى"، "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة"..

هذا ما حدث في الجزيرة الجرداء حيث لا زرع ولا ماء وموارد الرزق محدودة يقتضي واقع الحال استئثار العرب بخيرات البلاد النزرة اليسيرة وأن يصير التهالك والخطف، لكن النذير أفلح إلى أبعد مدى في تنظيم الحياة فأقام العدل بين الناس وآخى بينهم: الحر منهم وغير الحر، العربي وغير العربي، وقضى على الاستعلاء والعنجهية فأصبح الناس كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، فلم يعد ثمة فارق بين حجازي وعراقي وشامي وأبيض وملون لأنهم كلهم أبناء آدم، كلهم خلق الله ربهم واحد وأبوهم واحد والشمس تطلع عليهم وتوزع عليهم نورها بالعدل والسوية فلا تؤثر البعض بالكثير من نورها وحرارتها وتحجبه عن البعض الآخر، أو تشح وهي تشع، ولهم الليل والنهار جميعاً بلا تفرقة.. "كلكم لآدم وآدم من تراب.."، "ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية".

كفى.. كفى.. إن في نص الحديث ما يغني عن كل بيان وليس أدخل في هذا الباب على سبيل الصراحة من قوله عليه السلام: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة". قطع الشك باليقين إن كان هناك إثارة من شك في يقين.. لقد سن النبي القانون الذي يبيح ولا يحرم أن يتولى أمور المسلمين عبد وقد حدث فعلاً وحكم المسلمين كافور الأخشيد..

ولقد اعترف عالم مشهود هو الان بيرنز Alan Burns بسماحة الإسلام وبما جاء به مُحَمَّد ﷺ في مسألة الأجناس، فقال في كتابه المسمى: "التفرقة بين الأجناس والألوان": "إنه من المقرر أن الإسلام كان أكثر سماحة من المسيحية فيما يختص بالزهو والتباهي بالأصل والعنصر والتعصب للفكرة القومية، وهو لا يعبأ بألوان البشرة والطوائف ويحطم الحواجز التي تقام بين الناس وبين الإسلام أو أي دين آخر غير الإسلام وبين الرجال والنساء من أصول مختلفة، وشوهد أن الغزاة العرب بنوا بمحض إرادة الطرفين بنساء من بلاد وأصول غير عربية كما زوجوا بناتهم المسلمين من السود، وهذه حقيقة بعيدة المدى".

والآن – هذا رأي رجل غربي ليس بعربي رجل مسيحي مفروض فيه التعصب لدينه ولقوميته كمعظم الذين كتبوا في الإسلام من علماء الغرب، وهذا الرأي كرأي رجل غربي أقوى في حجته مما قاله المسلمون أنفسهم فقد شهد شاهد من أهلها لأن المسلم إن قال هذا الكلام فلعله أن يداخله الزهو أو الغلو وقد يقال عنه إنه كذلك وأنه متعصب وذلك

لإسقاط حجته. فلقد كان التزاوج بين العرب وغيرهم وتزويج البنات العربيات من السود نعمة من نعم المساواة التي أفاءها الله على عباده عن طريق مُحَمَّد الرسول البشر..

وهذا شاهد صدق على ما أشار به النبي ﷺ من ألا فارق بين أسود وأبيض إنه لم يكن حديث رواية أو أنه كان للتغطية أو أنه ألقى به ولم يعمل به أو أنه وضع كقاعدة مزوزة قابلة للتأويل، وحاشا للرسول أن يلقي كلاماً عائماً على سطح بحر من الخيال يتردد يمنة ويسرة ثم يختفي بدداً. وإنما كان كلامه لبنات تخرج من فمه الطاهر فسرعان ما يتركب منها الصرح المنيف صرح الحضارة الجديد يطل على العالم بنوره وهديه، بل لقد كان مُحَمَّد نفسه يكره الزيف والتمويه ويندد بالبلاغة إذ قصد بها الفخر وبالقدرة على حوك العبارات المنمقة وحبك الكلام الموضي أو إذا أريد إحقاق باطل أو إزهاق حق وحديثه في الرجلين المتخاصمين وكان أحدهما ألحن بحجته من الآخر.. مشهور. وقد اعتبر النبي ما يقضي به لأحدهما جمرة من نار فليأخذها أو فليتركها إذا كان ما قضى به غير ما يستحقه الرجل. هذا هو التطبيق العلمي للمبادئ الإنسانية التي جاء بها مُحَمَّد وعبر عنها في كلامه دائماً عن المساواة والديمقراطية بين الناس على سبيل التعميم في كل بقاع الأرض في المشارق والمغارب.

بهذا كان مُحَمَّد ﷺ يعامل العرب وغير العرب، وبمثل هذا كان خلفاء مُحَمَّد يحكمون العرب ويديرون البلاد التي فتحوها بالمبادئ الأخلاقية لا

بقوة الحسام كما يزعم غلاة المستشرقين، لقد فتحوها العقيدة فسلمت لهم البلاد وفتحت لهم أبوابها لما سمعوه عن سماحة الإسلام وديمقراطيته..

لهذا دخل الناس في هذا الدين زرافات ووحدانا، وأسلموا القياد له طلباً للخلاص من نير العبودية لأن مُحَمَّداً قد وضع أساس الديمقراطية العادلة.. بهذه الديمقراطية نبتت دوحة دولة إنسانية عريضة وأينعت للعين وآتت ثمارها وفرشت ظلها على عالم فرقته الإحن والأحقاد والتفرقة العنصرية والعصبية الممقوتة وأتت الفوضى فيه على كل أخضر ويابس من ثرات الحضارة التي جاء بها الأقدمون.. وعرف كل أمرئ مكانه في المجتمع الجديد المتحضر فحدد طريقه وطريقته، وعرف واجبه في الحياة نحو نفسه ونحو المجموع الإنساني الذي نبت فيه، وراح كل امرئ يعمل في بناء الصرح الجديد على حسب ما تسمح قوته، ومواهبه فلا استذلال ولا عبودية ولا فوارق طبقية ولا تخبط في دياجير الجهل ولا غطيط في بوادي كسل كأنه الموت؛ فلقد جاء المخلص والحاكم العادل.. جاء المنقذ والنذير.. ونعم المنقذ والنذير هو.. مُحَمَّد ﷺ!!

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- صحيح البخاري.

٣- صحيح مسلم.

٤- "سيرة الرسول" لابن هشام.

٥- "الطبقات الكبرى" لابن سعد.

٦- سنن ابن ماجة.

٧- "مجمع الأمثال" للميداني.

٨- "حياة مُحَمَّد" لمحمد حسين هيكل.

٩- "عبقرية مُحَمَّد" للعقاد.

١٠- "عبقرية عمر" للعقاد.

١١- "الديمقراطية في الإسلام" للعقاد.

١٢- "نساء النبي" لبنت الشاطئ.

١٣- "بنات النبي" لبنت الشاطئ.

١٤- "الرسول في بيته" لعبد الوهاب حمودة.

١٥- "أبو بكر والوحدة" لمحمد حلمي محمود.

١٦- دائرة المعارف البريطانية.

١٧- "تاريخ أوربا" لهربرت فيشر.

١٨- "اشتراكية الإسلام" لمصطفى السباعي.

١٩- "لا رق في الإسلام" لإبراهيم هاشم القلالي.

٢٠- "الرسالة الخالدة" لعبد الرحمن عزام.

٢١- "التفرقة العنصرية" لأحمد سويلم العمري.

الفهرس

تقديم ٥

مقدمة ٩

الفصل الأول : ديمقراطية الحكم

معنى الديمقراطية ١٣

تخبط ١٥

الزلزال: ٢٦

حرية السلوك.. والمسئولية!: ٣٣

مبدأ الشورى في التطبيق العملي ٣٨

ديمقراطية الحكم بين الشكل والمضمون ٤٧

ديمقراطية الحكم لعهد النبي ﷺ ٥٠

مُحَمَّد ﷺ وحق الملوك الإلهي ٥٨

الفصل الثاني : ديمقراطية التواضع

ولست بملك ٦٩

الدعابة ٨٠

ديمقراطيته بين أهله ٨٣

مستقبل العروس ٩٧
مع حبات القلوب ١٠١

الفصل الثالث : ديمقراطية المساواة

القديم والجديد ١٠٩
المسئولية ١٢١
ديمقراطيته بعامة ١٢٣
تراب.. فقط!: ١٣٣
مساواته نفسه بعامة المسلمين ١٤٥
الحب والمساواة ١٥٦
الخارجون على القانون، ومبدأ الديمقراطية بمعنى "المساواة" ١٦٢
محررون هناك، وعبيد هنا ١٦٦
المراجع ١٧٤